مصطفى محمود

الطوفان



دار المعارف

مصطفى محمود

الطوفان



دار المعارف

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الطوفان

مسرحية من فصل واحد

تفتح الستار على ظلام دامس ، ثم نسمع قرع طبل هائل يعقبه بزوغ الفجر من بطن الظلمة ، ونرى ملاكًا وسط دائرة النور الكاشف يقرأ من كتاب كبير مفتوح ، وحوله سرب من الملائكة ترقص فى تشكيلات تعبيرية على موسيقى غاية فى الصفاء والرقة .

تسبيحات سولو وكورال . .

لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله

الملاك الراوية :

فى مبـــــــدأ الـــــكـــون
والملائـــــكـــــة ســــجــود
وآدم فى مـــــهـــــد الـوجـود
أول بشـــر

فيه نفخة من روح الرءوف الودود
وتحت رجـلـيـه الجـمـيـع خُـدَّام
وإبـلـيس الـرجيم مـطـرود
بـيـجـادل الـرب الـعـظيم
إزاى تِـفَضَّـل الـطين

على جن مخلوق من النار الشريفه
بــعــــــزتك يـــــا رب
لازم حـافضح الـطـيـنـة الدنِيَّــه
وأغوى السلالـــــة الـــــدُّون
وأضــــلـــل الـــذريـــه
وأجـــعـــل لى منهـــم تَـبَـعْ
وعـــبـــيـــد وجـــنـــود
أَباهى بيهم جلالتك فى عرش النار
والكون بيرجف والسموات حاتنهدْ م الرعب
والأرض بـتـمـيـد م الـفـــزع
واحـنـا خشوع ساجدين وساكتين
بـنـسـتـعـجب من أمـر إبـلـيس
ومن الصلف والكبر والعناد والجحود
ســاعتهــا كـــان آدم وحـــيـــد
ومـفـيش لإبـلـيس عـلـيه مُدخـل
لما بـــقـوا اتـــنين آدم وحـواء
واحد يقول آه والتانى يقول لأ
دخـل إبليس فى أرض الخلاف

ودخل بين الأخوين قابيل وهابيل
وقـــتـــل قـــابـــيـــل أخـــوه
وجت البشرية من ضهر سفاح
نـــدم بـــالـــدموع ســـاعـــة المـــمـــات
وبـــدأت حـــكـــايـــة عـــجـــب . . .

موسيقى تصويرية :

يظلم المسرح تمامًا .

وتعود قرعة الطبل الهائل تعقبها طلعة فجر أحمر ، وتتحول الإضاءة كلها إلى حمراء ومارشات عسكرية . . . . . .

ثم نرى عروضًا سينمائية لقصاصات من حروب مختلفة ، ابتداء من المبارزات بالسيوف ، للالتحام بالخيول ، للجيوش الجرارة ، لحروب المدافع والمدرعات ، لحروب الطائرات والبوارج والصواريخ والقنابل الذرية . . . ثم قطع فجائى على عروض بالية رقيقة .

ثم عروض سيمفونية عظيمة لمئات الآلات والعازفين ثم لحظات من أوبرتات حب ناعمة شاعرية .

ثم لقطات لتطور العلوم والفنون من العربة للقطار للباخرة للطائرة ، لظهور العلوم الإلكترونية والأقمار الصناعية ، والتكنولوجيا الحديثة وبناء السدود والمصانع ، وناطحات السحاب ، والكبارى المعلقة ، والبواخر العملاقة ، وعصر الفضاء ، والمشى على القمر . . . ونزول فايكنج على المريخ . . . وتصوير كوكب المشترى ، ثم زحل ، ثم مرة أخرى دوى انفجارات لتجارب قنابل ذرية .

ثم قرع الطبل الهائل وغرق كل شيء فى الظلام ، ثم ظهور الملاك الراوى فى فجر أخضر يقرأ من كتاب القدر .

الملاك الراوى يقرأ ومن حوله الملائكة جالسين فى حلقة ينصتون .

عصور بعد عصور
الفراعين والفرس والرومان
والهكسوس والمغول والتتار
والعرب والإنجليز والفرنسيس
والروس والألمان والأمريكان
إنسان عجيب لغز طلسم
فيه النور والنار والشر والخير
وتَجَبُّر الجبار وحلم الحليم
ورحمة الرحمن وعزة المذل المنتقم
بنشوفه سفاح بيقتل
ونشوفه شاعر هيمان
فى دنيا الحنان والقبل
تباركت يا رب . . .
جعلت جميع الأوصاف فى واحد
والأرض والسموات فى ذرة
فى فرد . . . فى إنسان بسيط من طين
وجعلت قلبه عرش ومرايه
لأسمائك وأوصافك وسرك المكنون

ونزلت على قلبه العلوم والرسالات والكتب والنبوات
والـنـذر والـبـشـايـر
وأجـريت على أيـديـه الـكـرامـات
وصـنـعـت لـه مسرح عـجب
سـبـحـانك الملك الـقـدوس
الصـانـع المبـدع لـكـل بـديـع
سـبـحـانك . . . سـبـحـانك

موسيقى تصويرية مختارة من عدة سيمفونات دينية .

الملاك الراوى يقلب صفحات كتابه الكبير صفحة بعد صفحة ويطوى صفحة بعد صفحة .

ودارت الأيـام والسـنين
قـرَّبـنـا على الآخـر يـا إخـوانى
داخـلين سـنـة ألـفين
والـعـلم ع الأرض ذروة
والإنسـان بـلـغ غـايـتـه
لـكن بـيـقـولوا يـا إخوانـنـا
إنـه بـرغـم الـتـكـنولـوجيا والعلم
رجـع الإنسـان لـعصر الـقـرود
مش عـارف إزاى

تعالوا نتفرج

يخرج الملاك تلسكوبًا رمزيًا من جيبه وكذلك يفعل سرب الملائكة الجميع ينظرون بتلسكوباتهم إلى الأرض .

يظلم المسرح تدريجيًا ثم يضيء على المنظر الآتى :

فندق رمزى ، فى مكان رمزى ، نزلاؤه من كل الجنسيات التى نعرفها .

المنظر الأول فى غرفة الدكتور شاخت التى حولها إلى معمل كيميا وطبيعة وكهرباء وذرة . . . الغرفة مليئة بالأجهزة العجيبة ، والدكتور شاخت يقف وسط الغرفة فى فمه سيجارة يكتب بضع معادلات بالرموز على سبورة ثم يمسحها ، ثم يعود فيكتب ثم يمسح . . . ثم يفكر . . . ثم ينادى على مدير الفندق .

– مسيو أحمد . . مسيو أحمد .

(يدخل رجل أنيق فى الستين) .

– أفندم .

– جبت الخامات ؟

– خامات إيه . . .

– تراب اليورانيوم اللى قلت لك عليه من أسبوع .

– مفيش . . . ما لقتش .

– مفيش إزاى . . . أمال حانعمل التجارب على إيه . . يا متر ده إنت عندك جبل وراك مالوش آخر .

– يا دكتور بقى لنا خمسميت سنة بننحت فى الجبل ده . . شطبناه . . إنت ماسمعتش على أزمة الطاقة . . مابتقراش جرايد .

– خد من الجبل التانى .

- ده مش بتاعنا وأصحابه رفعوا أسعاره . . . بيبيعوا القنطار بمليون جنيه .
- (يصفر بفمه) مليون جنيه . . . دول مجانين . .
- مجانين ليه . . إذا كان كيلو اللحمة بقى بتلاتين جنيه ، والفرخة بخمسين جنيه ، وطبق الجمبرى بستين جنيه ، وساندويتش الطعمية بعشرة جنيه ، والبدلة بألف جنيه .
- أعوذ بالله أمال الفقير حايعيش إزاى . .
- فقير مين يا دكتور . . الفقير مات من زمان . . نص سكان الأرض ماتوا م الجوع الشهر اللى فات . . . إنت مابتسمعش راديو . .
- فظيع . . فظيع . . الأمل الوحيد اللى فاضل هو العلم . . العلم . . الاختراع .
- علم مين يا دكتور . . هو ودانا فى داهية غير العلم بتاعك . . زبالة المعمل اللى قلت لى أرميها فى البحر ورانا موتت السمك . . وسائل الحشرات اللى اخترعته عشان الصراصير موت الصراصير والفيران اللى بتأكل الصراصير والقطط اللى بتأكل الفيران ما فضلش حاجة ندبحها لكم ع الغدا .
- لكن موتنا الحشرات . . موتنا دودة القطن مش كده .
- وموتنا القطن كمان وحياتك . .
- ليه . .
- الـ (د. د. ت) بتاعك قتل الحشرات المضرة والحشرات

المفيدة .

ـ وفيه حشرات مفيدة كمان يا مسيو أحمد ؟

ـ أيوه يا مسيو شاخت اتضح إن فيه حشرات مفيدة بتأكل الميكروبات المهلكة اللى بتضر النباتات . . ولما قتلنا الحشرات دى انتشرت الميكروبات المهلكة وكلت المحصول كله .

ـ لكن طهرنا باقى المزروعات مش كده .

ـ للأسف . . وتركنا المواشى الغلبانة تأكل المزروعات اللى عليها الـ (د. د. ت) بتاعك وتمرض ودبحناها ، واحنا كمان كلنا لحمها اللى فيه (د. د. ت) ومرضنا . . فضلت سلسلة السموم تلف وتدور لغاية ما حصلتنا . وظهر الـ (د. د. ت) بتاعك فى لبن الأم المرضع .

– وعرفت ده كله منين يا مسيو أحمد .

– من التليفزيون يا دكتور . . ما بتفتحشى تليفزيون . . دى حكاية بيقولوها كل يوم اسمها التلوث . . تلوث البيئة . . يعنى تصلحوها من هنا يا علما . . وتخربوها من هنا . . جيتو تموتوا الصراصير موتوا البنى آدمين .

– لكن العلم . . العلم . . العلم هو الأمل . . هو الآخر حايصلح كل شىء . . العلم الألمانى يا مسيو أحمد .

– والله ما جاب أجلنا إلا العلم الألمانى ، والعلم المورستانى بتاعك . . . كل علمكم فى خدمة الحروب والهلاك والتدمير .

– إنت بتشك فى العلم يا مسيو أحمد . .

- أنا أؤمن بالعلم يا مسيو شاخت وديننا بيأمر بالعلم . لكن العلم النافع مش العلم الضار . . العلم عندنا هو علم باسم الله . اقرأ باسم ربك . . . العلم الجدير بالتعلم هو علم باسم الله علم للخير . . إنما علم باسم الشيطان ، علم للتدمير . . لأ . .
- إنت راجل شرقى رجعى متخلف يا مسيو أحمد ، بهم يا مسيو أحمد .
- طيب يا سيدى . . خلى التقدم ينفعكوا . . سلامو عليكو (برفع يديه إلى السماء) . . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، وقلب لا يخشع . .
- [بصرخ] إنت رايح فين . . أنا عاوز خامات . . خامات . . خامات بقول عايز خامات .
- (فى هدوء) والله بقى تنزل تجيبها بنفسك . .
- منين . .
- من طابور الجمعية . .
- إنت مش بتقول إن نص سكان الأرض ماتو من شهر .
- أيوه . .
- يبقى لازم الخامات الباقية حاتكفينا وتزيد .
- الكلام ده لو تفاهمنا بعقل وإنسانية ودين . . لكن يا خسارة الداء اللى قتل نص السكان حايقتل النص التانى .
- هوه إيه ؟؟
- الطمع يا مسيو شاخت . . الطمع . . والغرور . . وحب

السيطرة . . والعلم الألمانى . . والتفوق الأمريكى . والتقدم الروسى . . وكل واحد يطلع برأى عاوز يفرضه . . وكل واحد عاوز يركب على التانى ، وكل واحد بيقول أنا . . أنا . . ونحن . . وهى . . وهو . . وهم . . وهن . . كله بيضرب بعضه . . ماحدش بيفكر إن فيه حقيقة كبيرة فوق ده كله .

– حقيقة إيه ؟

– إن فيه ربنا . . وإنها مش تكية من غير بواب .

– مش فاهم !

– يعنى حضرتك مش لوحدك . . ولا إحنا لوحدنا . . إنما فيه رب خلقنا ، وحايحاسبنا ، وحانقف قدامه زى ما أنا واقف قدامك .

– إزاى يعنى مش فاهم !

– يعنى مش معقول تكون صدفة إن إحنا اتولدنا وفتحنا عنينا لقينا جنبنا الميه سيالة ، والهوا بيمروح ، والفواكه جاهزة مستوية ع الشجر ، والأكل فى الغيطان ، وع الباب دودة بتغزل حرير ، ونحلة بتعمل عسل ، وبقرة بتحلب لبن ، وشمس بتنور ، وقمر بيضوى وبترول مخزون فى الأرض ، وكنوز حديد ونحاس ودهب إبريز تحت الطلب . . مش معقول كل ده اترتب صدفه .

– ودى إيه دى . . دى اسمها الطبيعة يا مسيو أحمد .

– ومين طبّع الطبيعة يا مسيو شاخت ومين طوعها لك ؟
– مخى .
– دى الحكاية موجودة ومتجهزة قبل ما تشغل مخك ، وقبل ما يتولد مخك يا مسيو شاخت جننتنى !
– إيه دى . . يعنى إيه دى كمان .
– أما تفهم يعنى إيه دى . . ابقى نادينى . . . سلامو عليكم
(يخرج) .
(يضىء نور أخضر فى مربع بالحائط عليه رقم ١٢ ونسمع صوتًا ينادى)
– مسيو أحمد . . مسيو أحمد.
– أيوه يا مستر باركر .
– أنا عاوزك فى الأوده حالاً .
– حاضر.

(تظلم غرفة شاخت ، ثم تضىء غرفة باركر ، ونرى رجلاً مثل مدير بنك يجلس بين عدد من الخزائن الحديدية وراء شباك صرف . وأمامه أكوام من العملة . . سبائك ذهبية . . مجوهرات . . أوراق عملة كبيرة ملصقة على جدران الغرفة مثل الأفيشات . . أكبرها . . ورقة بألف دولار) .

أحمد : أيوه يا مستر باركر أى خدمة .
باركر : أزمة خطيرة يا مسيو أحمد . . فيه أزمة خطيرة فى الوضع المالى للعالم .
أحمد : إنت دايماً كده شغلتك الأزمات . . تورد أزمات وتصدر أزمات . . والله ما أنت جايبها البر يا مستر باركر . .

باركر : المرة دى الأزمة خطيرة يا مسيو أحمد . .

أحمد : خير اللهم اجعله خير .

- الفلوس حصل لها تضخم . . تضخم تضخم عارف يعنى إيه تضخم ؟

- يعنى الفلوس كترت ورخصت . .

- برافو عليك . . تكتر الفلوس فى إيدين الناس تنزل قيمتها ، ينزل الدولار .. يرتفع الذهب ، تفلس البنوك تقفل المصانع . . يتعطل العمال يرتبك كل شىء .

- نلغيها .

- نلغى إيه .

- نلغى الفلوس .

- إيه ده . . إنت راجل بدائى . . أمال نتعامل إزاى . . بالمقايضة . . زى الزنوج . . تحلق لى أديلك موزة ..!!؟

- ما دام الفلوس فقدت وظيفتها .

- إيه هى وظيفتها .

- وظيفة الفلوس إنها شيك فى مقابل عمل . . القيمة الحقيقية هى قيمة العمل . . الكد والكدح والعرق . . هو الرصيد الحقيقى .. والفلوس هى المقابل الورقى .. دلوقت الفلوس فقدت وظيفتها بقت شيك بدون مقابل ، أى رأسمال نايم فى بنك ممكن يولد من نفسه ملايين للبيه العواطلى اللى بيسكر فى البار . . يكسب له بدون ما يشتغل ، وفى المقابل فيه ملايين

من الفقرا بيموتوا من الجوع والحرمان ، لأنهم بيشتغلوا للبيه الغنى عشان يزودوا فلوسه النايمة فى البنك .

- إيه ده يا مسيو أحمد إنت شيوعى والـلا إيه .
- لا أبدًا والله . . أنا راجل مسلم .
- وعاوزنا نعمل إيه يا مسيو مسلم ؟
- نشوف الفلوس بتولد إزاى يا مستر باركر . .
- بتولد بالحلال .
- أبدًا بالحرام وحياتك . . بتولد ولادة غير شرعية بالربا والفوائد للأموال العاطلة النايمة فى البنوك . . والسلف الاستغلالية بفوائد باهظة للدول الفقيرة اللى زى حالاتنا .

وعاوزنا نعمل إيه . . نديكو فلوس من غير فوائد .

- أيوه نلغى جميع الفوائد والعمليات الربوية ، ونخلى الفلوس
- تولد ولادة شرعية بالعمل والمجازفة فى المشروعات التعميرية .

وبعدين ؟

- وبعدين حا تنزل جميع رءوس الأموال النايمة فى البنوك وتحت البلاطة . . تنزل فى السوق غصب عنها عشان تعمل مشروعات وتشغل الأيدى العاطلة وتكسب بالحلال . تكسب بالعرق . .
- والتضخم .
- مش حا يكون فيه تضخم . . هو التضخم سببه إيه . . سببه
- إنى أنا يا مصنع يا اللى باستلف الفلوس بالربا والفوائد . .

عشان أرد الدين اللى بيتراكم عليَّ أضعاف ، لازم أرفع أسعارى أضعاف بدون داعى . ومن هنا تزيد العملة السايلة عن دواعيها وهو ده اللى بتسموه التضخم . .

– ده اقتصاد جديد يا مسيو مسلم ؟

– ده اسمه الاقتصاد الإسلامى .

– إنت عاوز تخرب بيتنا يا مسيو مسلم .

– والله يا أخى إنت اللى خربت بيتنا ، وخربت العالم يا مستر باركر . . روح الله يخرب بيتك بحق جاه النبى .

– بتقول إيه يا مسيو مسلم . . مين بحق جاه النبى دى . . . . مين النبى دى . . .

– النبى ده كان واحد ما عندوش فلوس ومات من غير ما يحوش فلوس .

– وده يبقى واحد دى .

– ده يبقى نبى كبير يا مستر باركر مش واحد وبس . . ده كان أُمَّة .

– وازاى بقى نبى من غير فلوس ومن غير تكنولوجيا . .

– بعلم جاله من عند ربنا .

– آه . . طيب وليه أمته كلها جهلة وشحاتين يا مسيو أحمد . . ليه كلكم عواطلية وخدامين وبوابين وطباخين وزبالين ومساحين جزم يا مسيو أحمد . . بطل يجيكو العلم من عند ربنا بتاعكو . . .

- أيوه . . عشان مشينا وراكو وجبتو لنا الكافية . .
- والا علم ربنا بتاعكو طلع مش نافع .
- لو مشينا عليه كان نفعنا ! . لما كنا بنعرف ربنا زمان يا مستر باركر هزمنا الفرس والروم ، وفتحنا الأندلس ، وعلمناكم إزاى تعيشوا .
- ده كان زمان يا مسيو (كان) فعل ماضى تاريخ قديم . . أنتيكة متاحف . . آثار . . مدافن . . طول عمرك حاتقعد تبكى ع المدافن وتعيش فى المدافن . . اصحى بقّ يا مسلم فتح عينك وشوف حالك .
- فتحت وصحيت ما شفتش حواليه إلا البلاوى . . أزمة الطاقة . . أزمة الأكل . . التلوث . . نص السكان بيموتوا م الجوع . . التضخم . . الفلوس أرخص م الورق المطبوعة عليه ، البترول أغلى م الويسكى . . الرغيف أغلى م الألماظ . . الهوا فيه غبار ذرى . . الميه فيها دود . . الناس بتاكل بعض . . مش هى دى الجنة بتاعتكو . . أعوذ بالله ألطف يا رب (يستدير منصرفاً) تسمح لى أروح لحالى .
- إيه . . رايح فين ؟
- رايح أغمض عينيه وأنام فى المدافن بتاعتى . . أرجع لعالم المتاحف والأنتيكات بتاعى .
- والتضخم اللى احنا فيه . . أنا طلبتك عشان التضخم .
- والله يا أخى أنا قلت لك على العلم اللى ربنا علمه لنا فى

حكاية التضخم دى .

ـ ربنا . . ربنا . . لكن أنا ما أعرفش ربنا . . أنا عاوز حد أعرف أكلمه ويكلمنى . . وأفهمه ويفهمنى . . إنما ربنا بتاعكو ده أنا مش فاهمه .

– أما تبق تفهمه . . ابق اندهلى . . سلام عليكو . . إلهى ربنا يضخمكوا كمان وكمان . .

(يضىء نور أحمر فى مربع بالحائط عليه رقم ١٣ ونسمع صوتًا ينادى)

– مسيو أحمد . . مسيو أحمد .

أحمد : أيوه يا بروفيسور كلينوف .

– أنا عاوزك فى الأوده حالا .

– حاضر . . جايلك (يكلم نفسه) دوختونا بين خدمة الغرب وخدمة الشرق . . امتى بق يا رب حاتتوب علينا .

(تظلم غرفة باركر ثم تضىء غرفة بروفيسور كلينوف . . نرى رجلا فى الستين يلبس فراء دب ، وله لحية بيضاء أنيقة مدببة . . غرفته مليئة بنماذج الأقمار الصناعية والصواريخ ، وسفن الفضاء ، وأفيشات بالية على الحائط وصور الباليرينا ليوبوفا ويولا نوفا . .

أحمد : أفندم .

– عملت إيه فى طلبية القمح اللى قلت لك عليها الشهر اللى فات ؟

– كلوها أصحاب النصيب .

– إيه . .

– بقول كلوها أصحاب النصيب .

– إزاى ؟

– الباخرة اتعطلت فى المحيط الهندى ، نزل عليها الهنود كلوها . . سفوها كده من غير خبز ولا طحن ولا عجن .

– إزاى الكلام ده ؟

– أهو ده اللى حصل . . إنت عارف العالم فى حالة فوضى ومجاعة واضطراب ، ونقص فى جميع الموارد ، وانفجار سكانى .. عشرة آلاف مليون بق مفتوح .. يعنى أربعة أضعاف الحجم السكانى القديم ، وبرغم موت نص السكان الشهر اللى فات ، فإن الباقى ما زالوا ضعف السكان زمان . . والجوع كافر .

– بكره الموت ياخد نص الموجودين الشهر الجاى ونعيش بعد كده مرتاحين .

– أبدًا حتى لو قصف عمرهم جمعًا وفضل اتنين بس حايقتلوا بعض . . المشكلة مش مشكلة موارد يا بروفيسور . . المشكلة فى العقلية اللى بتدير الموارد . . فكرة الصراع . . . صراع الأنا والأنت وصراع الطبقة والطبقة ، وصراع الدولة والدولة .

– ودى فيها إيه يا مسيو أحمد ؟ ده اسمه الصراع الطبقى . . . ده كله خير . الصراع الطبقى هو دينامو التقدم هو البنزين اللى بيحرك التاريخ لقدام . .

– الكلام ده فى كتبكم . . لكن فى الواقع والحقيقة وعلى

خريطة الأرض والبشر أديلك شايف الصراع عمل إيه .

- عشان الطبقة صاحبة المصلحة ما أخدتش الحكم . . لو أن البروليتاريا أخذت الحكم كان انصلح الحال . حكم العمال هو التقدم يا مسيو يا رجعى .

- العمال فى بولندا رفضوكو ورفضوا نظامكو يا مسيو يا تقدمى وعلقوا صورة البابا والعدرة مريم والعمال عندكو خدوا الحكم ولا انصلحش الحال وبتشتروا القمح من الدول الرجعية ، مع أن عندكم أكبر مزارع القمح فى العالم فى أكرانيا ، وعندكو التكنولوجيا والعلم والعمال والفلاحين ، وكله بيشتغل بالصرمة القديمة . . ليه الإنتاج هابط وبتطلبوا الرغيف من بلاد الرجعية . .

- فيه عوامل متداخلة إنت ما تفهمهاش . . إنت راجل بورجوازى مغفل عايش فى الغيبيات شرق . . حمار . . الاستعمار غسل مخك والإمبريالية عملت منك عميل .

- ما عنديش مانع تغسل لى مخى إنت كمان وتاخده فُمّ وتنضفه وتشغلنى عميل عندك . . بس فهمنى . . اقنعنى الله يكرمك .

- إحنا طلعنا القمر . .

- ومش قادرين تطلعوا م المطب البسيط ده .

- مطب إيه وبتاع إيه . . دى حكاية بسيطة اسمها البيروقراطية . .

- عندنا وحياتك وعارفينها فى الجمعية قدام بيتنا . . ومعناها

ببساطة إن العامل والموظف مش عاوز يشتغل مع أن الدولة دولته والنظام نظامه . . . الكل قرفان من عيشته . . ليه . . لازم فيه شيء ناقص . .

- بنقول لك فيه عوامل متداخلة . .

- هي إيه . . ليه ما تتكلمش بصراحة وتقول إيه اللي ناقص . . العالم كله بيموت . . نفهم الحقيقة قبل ما نموت عشان نموت بشرف نبقى اسمنا ع الأقل حاربنا باقتناع .

- صراع المبادئ يا مسيو أحمد ده اسمه صراع المبادئ .

- أبدًا . . كدابين . . مفيش مبادئ . . الشيوعي بيقتل الشيوعي في كمبوديا . . والماركسي بيقتل الماركسي في فيتنام والصين ، والمسيحي بيقتل المسيحي في أيرلندا . . والبعثي بيقتل البعثي في سوريا والعراق . . والقومي العربي بيقتل القومي العربي في كل مكان . . كذب . . مفيش غير شهوة القتل والسلطة صدقني يا بروفيسور كلينوف جميع النظم فاسدة في الشرق والغرب ، لأنها قايمة ع الحسابات المادية وحدها ، على المصالح المادية والأرقام ، وعلى الواقع المادي وحده ، لكن الإنسان مش جسد بس . . وفي السويد منتهى الرخاء المادي والحرية المادية والجنس بلا كبت ، لكن تلاقي أعلى معدلات الجنون والانتحار . . ليه . . لأن البطن شبعت والغرائز شبعت لكن الروح عطشانة والفطرة مشوهة .

- ليه ؟

– لأن الحياة خلت من فكرة الله والخلود والعدل المطلق . . . وأصبحت مسطحة . . أصبحت مجرد أكل وشرب . . وجنس . . وبعدين التراب .

– ما هي كده بصحيح يا مسيو رجعي .

– أبدًا هي مش كده يا مسيو تقدمي . . ويوم ما حاتبقى كده الواحد حايحس بالملل والسخف والضجر . . وحايتجنن فعلاً أو ينتحر . .

– أو يشرب خمرة .

– بالضبط . .

– ومن حسن الحظ أن الخمرة أرخص حاجة اليومين دول .

– لأن كل شيء حُمُضْ ، كل شيء بقى حَمْضان يا بروفيسور كلينوف ، والعالم كله بقى حَمْضَان . .

– إنت اللى راجل درويش مخك حَمْضان يا مسيو أحمد . . مخك حُمُضْ من قراية الكلام الفارغ اللى بتقراه . . أنا حاديك تذكرة تروح الباليه بكره تداوى الحَمَضان اللى فى مخك . . إنت شفت يولا نوفا الباليرينا الجميلة .

– شيء جميل فعلاً . . رائع .

– فراشة . . مَلَك . . نسمة حلوة وسط الحياة المادية اللى بتقول عليها . . صدقنى المسرح عندنا بيقوم بدور المعبد .

– معنديش مانع بس يدلنى على ربنا . .

– ربنا مين . . ما تتوهنيش فى كلمات همايونى ، خدنى من

إيدى وربنى ربنا بتاعك وأنا آمن معاك .

ـ إنت مش قادر تشوف الإلكترون وهو أتفه شيء ، حاتشوف ربنا وهو أعظم شيء . . بالكتير آخر ما توصل له إنك حاتشوف بولانوفا . . الفراشة . . المَلَك . . النسمة الحلوة . . على أنغام رمسكى كورساكوف وطبق كافيار وكاس فوذكا .

ـ مدهش . . وفيه أحلى من كده .

ـ فيه . .

ـ فيه إيه يا مسيو أحمد ؟

ـ الجنة .

ـ خليها لك والحقنى أنا بطبق الكافيار قوام أنا ف عرضك .

ـ وصل تمنه لألف جنيه وحياتك فى أزمة الأكل الراهنة .

ـ شفت . . يا خسارة . . بقى دلوقت أبعد م الجنة . .

ـ وبكره حا يبقى أبعد م الطلوع للقمر . . السمك اللى بيطلعوا منه الكافيار مات كله فى البحر بسبب التلوث .

ـ فعلاً . . إحنا رايحين لكارثة . .

(يضيء نور بنفسجى ف مربع بالحائط عليه رقم ١٤ ونسمع صوتًا ينادى)

ـ مسيو أحمد . . مسيو أحمد . .

ـ أيوه يا مسيو أرسطو فوليس . . أنا عارف . . لازم ناوى تصدعنى زى كل يوم . . ما هو مفيش وراك إلا الجدل وتصديع الراس .

– مسيو أحمد .

– أفندم . . حاضر . . تحت أمرك . . أنا عارف ربنا خلقك علشان تعذبنا . .

(تضيء غرفة أرسطوفوليس ونرى أحمد داخلاً) .

أرسطوفوليس : ومنين عرفت إن ربنا خلقنى . . وإذا كان ربنا خلقنى يبقى مين خلق ربنا .

– أعوذ بالله . . حا نرجع للدوشة تانى . ما هو يا مسيو أرسطوفوليس لوكان ربنا حا يحتاج لخالق يخلقه ماكانش بقى ربنا ولاكنا سميناه خالق . .

– يعنى إيه . .

– يعنى بنقول عليه لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد .

– ليه . . فهمنى . . إثبت لى . . برهن لى . .

– يا رب لطفك . . يا رب حلمك . . حاقول إيه للراجل أبو عقل خشَّابى ده . . يا أستاذنا مش معقول الخالق حايخضع لقوانين مخلوقاته .

– اقنعنى بالجدل والمنطق . . أنا راجل بتاع منطق .

– يعنى مش معقول ربنا حا يخلق الزمان والمكان والميلاد والموت . . ويبقى هو كمان خاضع للمكان والزمان والميلاد والموت . . لازم حايكون فوق القوانين اللى خلقها .

– أهى حكاية فوق دى هى كل المشكلة اللى معذبانى . . تفتكر إن فيه حاجة فوق . . إنت متأكد إن فيه حاجة فوق .

– ما دام فى تحت يبقى لازم فيه فوق يا مسيو أرسطوفوليس .
– بيعجبنى عقلك الهندسى ده . . فعلاً مش عجيبة إن المسطرة والبرجل والمنقلة والمزولة طلعت من عندكم يا عرب .
– والحساب كمان والكسور العشرية والفلك والتشريح والمزيكة والتواشيح .
– لكن الفلسفة طلعت من عندنا إحنا من أتينا .
– الله يبارك فيكم وفى فلسفتكم ، خلت الحيرة حيرتين والسؤال سؤالين والسؤالين ألف وما جاوَبِتْش على أى حاجة . . عكرت البحر وما اصْطادتش سمكاية واحدة . . ماطلعتناش . . بأى جواب شافى .
– مش لازم تلاقى جواب . . المهم نفكر . . نفكر .
– فكر زى ما انت عاوز بس اطلع لى بفايدة . . اطلع لى بنتيجة . .
– الفايدة . الفايدة . . . الفايدة . . إنت زى البهيم اللى ما يهموش إلا البرسيم .
– وهو حد لاقى برسيم دلوقت . ده عود البرسيم بخمسة جنيه .
– الفايدة الأكيدة إن مفيش فايدة . . والكل أخرته الموت والتراب والحسبة خسرانة . . والنتيجة صفر .
– إنت بقيت هيبى يا مسيو أرسطوفوليس والا إيه .
– أنا أصلى دايماً بفكر على آخر موضة .
– إنت متأكد إن النتيجة صفر .

ـ مفيش حد رجع بعد الموت يقولنا . . وربنا ما نزلش عليَّ وَحْى .
ـ ومعقول ربنا حايكلم اللى زيك .
ـ وليه لأ . . مش هو رحيم غفَّار وكله محبَّة . .
ـ ما انت قطعت الحبل اللى بينك وبينه . . قطعت سلك التليفون . حا تسمعه إزاى . . ما فضلكش إلا شيطانك تحاوره ويحاورك . .
ـ وكمان بتصدق إن فيه شيطان .
ـ زى ما فيه ميكروب إنت مش شايفه يبقى ممكن يكون فيه شيطان إنت مش شايفه .
ـ ممكن شىء ومؤكد شىء تانى . إنت بتتكلم عن احتمال . . ومطلوب منك إنك ترفع الاحتمال إلى ترجيح ، ثم ترفع الرجحان إلى توكيد ، عشان يبقى كلامك علمى مش كلام دراويش مغفلين .
ـ الله يسامحك .
ـ مفيش شيطان ولا حاجة يا عربى يا عبيط . . الشيطان هو الشماعة اللى بنعلق عليها عيوبنا . . الشيطان الحقيقى هو إنت وأنا . .
ـ هو أنت فعلاً . . صدقت فى الكلمة دى .
ـ قصدك إيه .
ـ قصدى شوف اللى تشوفه وصدق اللى تصدقه . . واعتقنى

لوجه الله . . وجعت لى دماغي . . سلام عليكم .

- إيه إنت رايح فين يا عربى يا مخبول .

- يا راجل سيبنى فى حالى الله يهديك .

- برهن لى أولاً بالمنطق على حكاية الشيطان بتاعك ده . . واثبت لى بالمسطرة والبرجل إن فيه شيطان . وهات لى شيطان صغير أتفرج عليه . . كلمنى مرة واحدة كلام علمى . اعمل لى تجربة . . أنا راجل تجريبي . . حُطّ لى خل على زعفرا على كبريت وطلع لى شيطان أو مسحوق شيطان . . أنا راجل علمى . . أنا عاوز معامل وتجارب !

- يا سيدى خليك على أدّ علمك . . وخلينى على أدّ علمى واعتقنى . . ارحمنى . . الله يرحمك .

- أنا عاوز منطق . . عاوز حيثيات . . عاوز استدلالات . . عاوز مقدمات ونتائج . . عاوز إثباتات . . عاوز وقائع شيطانية صريحة .

- (يصرخ) وهى فيه وقائع شيطانية أصرح م اللى احنا فيه . . يا راجل بص حواليك واعتبر (يفلت من قبضته) يا هوه . . يا لطيف . . يا حفيظ احفظنا . .

- عربى عبيط مخلول بياع سبح وشخاشيخ .

(يضيء نور أزرق فى مربع بالحائط ونسمع ميكروفون يقول) :

- من فضلكو . . جميع نزلاء الفندق مدعوون للاجتماع بالقاعة الكبرى فوراً للأهمية . . الرجاء عدم التأخير .

(يظلم المسرح . . ثم يضاء شيئًا فشيئًا فنرى صالة كبرى ونرى نزلاء الفندق قادمين من الأبواب الخلفية . . مستر شاخت . . مستر باركر . . بروفيسور كلينوف . . والأستاذ باكونين والزنجى العريان بوجودوجو والشيطان مفستو ومسيو أحمد المترودوتيل ورجل يابانى ورجل صينى ورجل آخر فى ثياب هندية والإمبراطور بوكاسا والملكة مبريام فى ملابس إفريقية) .

مستر باركر هقف متكلماً :

- فى الواقع أنتم مدعوين النهاردة للتفكير فى وضع العالم الدقيق . . العالم يا جماعة على حافة كارثة وممكن ينتهى بين يوم والتانى ، ونبقى كلنا تاريخ وآثار وحفريات ، وإحنا عاوزين نفكر كلنا ، ونحاول نشوف مخرج . . نحاول نشوف حل . . وكل واحد يقول لنا نعمل إيه ، وطبعاً انتو عارفين المشكلة . . الانفجار السكانى تجاوز حدود الموارد المتاحة ، وفيه أزمة أكل وأزمة طاقة . . وتلوث البيئة أتلف الثروة الحيوانية والنباتية . . وبيهدد الإنسان نفسه بالهلاك . . والتضخم جعل العملة بدون قيمة ، والمجاعات بتنفجر فى كل مكان ، وأمراض وأوبئة من أنواع جديدة بتواجهنا لأول مرة ومش عارفين نعمل إيه .

(بروفيسور كلينوف . يضع فى فمه سيجارًا ويشعله قائلاً فى هدوء) :

- أنا ما زلت مصرًّا على رأيى أن جميع المشاكل والتناقضات حاتنتهى إذا حكمت الطبقة العاملة صاحبة المصلحة . جه اليوم اللى نقول فيه . . يا عمال العالم اتحدوا لتحكموا وتقودوا التاريخ . .

(الأستاذ باكونين يرفع أصبعه)

باركر : الأستاذ باكونين . . اتفضل .

باكونين : بالعكس جه الوقت اللى نحل فيه جميع الحكومات ، ونحرر الإنسان من جميع أجهزة القمع والضغط ، ومن جميع الهياكل الفوقية . . جه اليوم اللى نقول فيه :

يا جميع النظم ثبت إفلاسك . .

يا كل الحكام خربتو بيتنا . . . نطالبكم بالتنحى .

يا كل القوانين . . ثبت عدم صلاحيتك .

لتنتهى كل القوانين وكل الضوابط ، وكل النظم ، وكل الهياكل السياسية . . وليفعل كل إنسان ما يحلو له .

باركر : دى تبقى اسمها الفوضى .

باكونين : بالضبط . . نجرب الفوضى مرة ما دام النظام فشل . . أنا فوضوى وأطالب بالفوضوية الكاملة . .

أحمد : معناها نعالج انتشار السرقة بإشاعة القتل . . أنا أفهم إن إحنا نعالج نظام فاشل بنظام ناجح . . أما الفوضى لأ . . لأن الفوضى هى الظلم المستمر الشامل .

شاخت : فعلاً أى شىء أفضل من الفوضى . . والفشل الحالى بكل مساوئه أفضل من الفوضى . . يا مسيو باكونين أنت . . بتخرف .

باركر : كلمة مندوب الصين .

الرجل الصينى : (يدخن من بايب طويل ويقول فى هدوء) :

– اسمحوا لى أقول لكم المشكلة فى الحقيقة ما تهمناش كتير فى الصين . . إحنا كنا ٧٠٠ مليون بقينا دلوقت ٣٠٠٠ مليون يعنى عندنا احتياطى كبير أوى . ماعندناش خوف م الانقراض . . جميع الكوارث اللى بتحكو عنها ، والأوبئة والمجاعات مجرد زكام عابر بالنسبة لنا ، إحنا هزمنا كل المشاكل بالطاقة البشرية والإنتاج . . لو دخل الموت عندنا حايملا حفانه من بحر . . سيداتى سادتى . . مفيش فى الصين مشاكل . .

(يجلس فى هدوء ويعود إلى تدخين البايب الطويل)

(يقف الدكتور شاخت) :

شاخت : (فى انفعال) أنا مازلت بقول إن العلم هو الأمل ، العلم ممكن يحول التراب إلى فراخ ، ويطلع من الحجر طاقة تنور مدينة ، ويزرع الصحارى ويستنبت أغذية جديدة من قاع المحيطات .

باركر : إمتى . .

شاخت : أدونى إمكانيات وأنا أعمل لكم معجزة .

كلينوف : إدوله كل الإمكانيات اللى عايزها .

باركر : نديلك كل الإمكانيات اللى عايزها . . نعتمد لك فورًا ألف مليون دولار من الكونجرس . . .

كلينوف : ايدينا معاك شد حيلك .

الزنجى بوجودوجو: يا سادة مفيش أمل طول ما بتقسموا الناس فى بلادكو لسود وبيض ، وطول ما فيه شوارع للسود وشوارع للبيض ،

ومدارس للسود ومدارس للبيض .

الإمبراطور بوكاسا : يا سادة مفيش أمل طول ما أنا معزول ، ومفيش حد بيسمع كلامى ، أنا بوكاسا إمبراطور العالم وسيد الكون المطاع .

(تقف الملكة الإفريقية ميريام طويلة مهيبة خرافية مثل بلقيس ملكة سبأ . . تلتفت إليها الأنظار) .

باركر : صاحبة الجلالة ميريام ملكة دولة موجامبو الإفريقية .

ميريام : ده كلام قديم جدًا . كل واحد بيقول نفس الكلام دايمًا . . ماحدش عاوز يقابل التانى فى نص الطريق . ماحدش عاوز يقلع جلده . . كل واحد فيكم بيكلم نفسه من غير ما يحاول ، يسمع التانى . . مفيش جسور مشتركة بيننا . . المشكلة خطيرة . . إحنا فى بلادنا لما بيستفحل الداء بنستدعى الحكماء ، وإحنا معانا النهاردة حكيم الحكماء فى كل العصور .

(تسلط الأضواء على عمق القاعة فى نفس اللحظة التى تختم فيها عبارتها ويدخل جواما نوح فى هالة الضوء شامخ الطول عجوز مهيب . . جليل وقور تتدلى لحيته البيضاء إلى ركبتيه) .

ميريام : جواما نوح شيخ الحكماء . عمره ٢٠٠٠ سنة عاش جميع العصور ، وحضر كل أحداث التاريخ ، وعرف حكمة الأزل . . وشرب من بحار الأسرار .

(الأعناق تشرئب إلى هذا الزائر الخرافى)

نوح : السلام عليكم يا أولادى .

باركر : والله يا سيدنا جوما نوح أنت جيت فى وقتك إلحقنا . . .

إنجدنا . . جميع الشركات والمصانع الأمريكية تحت تصرفك . . جميع خبراء صناعة المراكب والبواخر رهن أمرك . . أرجوك . . طلعنا م الأرض المخروبة دى ، خدنا معاك فى مركبك .

نوح : (فى هدوء جليل) مركبك نفسك . . إذا ركبت نفسك نجوت . وإذا ركبتك نفسك هلكت .

باركر : دى ألغاز دى ؟

نوح : فى الأرض ما يكفى لحاجات كل الناس ، ولكن ليس فيها ما يكفى أطماعهم .

شاخت : دى معادلات صعبة أوى .

نوح : أنتم ضيوف على هذا الكوكب . . كل منكم زائر عابر . . وحظكم فى الدنيا عبور قصير ، أنتم مدعوون دعاكم الله لقضاء يوم فى مملكته . . هل يطمع الضيف فى أكثر من ضيافة طيبة . . هل يشغل عابر السبيل نفسه بتكديس الممتلكات على كاهله . . أو يمشي خفيفاً كالفراشة فى حدائق الله . . حسب كل واحد أن يمتلك ثوبه ودابته ولقمته وسوف تكفينا الأرض وزيادة .

لا تهللوا لمواكب العظماء ، فالعظيم هو من حكم نفسه لا من حكم غيره . .

لا تهللوا لمن يكسب أكثر ، فما قيمة هذا الذى يكسب ذهب الأرض ويخسر نفسه .

باركر : شيوعية دى يا سيدنا والا إيه ؟

نوح : لا . . نظامنا ينبع من أنفسنا محبة وتطوعًا ولا يأتى بالقهر والغصب من خارجنا . . لسنا إخوانًا بأمر الحاكم ، وسلطة البوليس ، وإنما نحن إخوة باختيار نفوسنا الطيبة . .

شاخت : إحنا عايزين المركب يا سيدنا . . ماتخرجش عن الموضوع .

نوح : مركبك إلى الله هى سجادة صلاتك . . بقعة الأمان الوحيدة فى هذه الأرض الخراب هى سجادة الصلاة .

أحمد : بوركت يا سيدنا . . كلماتك ذهب .

كلينوف : الراجل خرَّف ، صلاة إيه وبتاع إيه . .

شاخت : ده عنده تصلب شرايين . . ٢٠٠٠ سنة تخلى المخ خشب . . معذور يا إخواننا .

نوح : من يريد النجاة فليحمل سجادته ويتبعنى .

أحمد : إيدى على إيدك يا سيدنا . . أنا وراك لآخر الدنيا .

باركر : إنت رايح فين يا مسيو أحمد . ده راجل مجنون حاتسيب الأوتيل لمين .

أحمد : أنا مستقيل م الأوتيل شوف لك متر غيرى يدير الخرابة بتاعتك . . سلامو عليكم .

(يخرج نوح وأحمد يد كل منهما على كتف الآخر فى تضامن أخوى حنون . . وقد حمل أحمد سجادته على كتفه) .

كلينوف : ده راجل هربان م الخانكة أراهنكو .

باركر : فعلاً دى حالة معروفة فى كتب السيكولوجى اسمها فوبيا دينية .

شاخت : فعلاً أنا كنت أعرف واحد فى مستشفى المجاذيب مركب دقن وبيقول إنه سيدنا نوح .

باركر : هو بعينه وحياتك .

كلينوف : هو مين .

باركر : اللى بدور عليه فى رواية نوح اللى حانتجها للسيما ، هو الوحيد اللى ينفع للدور .

(باركر يتجه بكل أدب للملكة ميريام) .

باركر : يا مدام ميريام . . آسف قصدى يا صاحبة الجلالة تسمحى جلالتك . . ممكن جلالتك . . أنا محتاج للحكيم بتاعك . . شهر واحد أستلفه منك . . شهر واحد وأرجعه لسموك سليم محنط زى ما هو والله ، وفوقه مليون دولار بقشيش . يا مدام مفيش حد غيره حاينفع فى روايتى . . (سرك المجاذيب) أرجوكى يا مدام . . . أبوس إيدك .

(الملكة ميريام تهب واقفة فى كبرياء غاضب) :

ميريام : الظاهر إن مفيش فايدة فيكم . . الظاهر إن العالم انتهى فعلاً ، ومالوش حل . وماعادش لى مكان إلا مع حكيم الحكماء .

(تنصرف غاضبة دون كلمة) .

كلينوف : (يتململ) وبعدين .

باركر : مافضلش إلا الحل بتاع كل يوم .

شاخت : حل إيه .

باركر : إن إحنا نشرب ونرقص ونأجل الهموم لبكرة .

كلينوف : برافو عليك . . كلام عملى . . عقلية واقعية مية فى المية .

باركر : (ينادى بصوت عالٍ) هاى . فرانسوا . . . سباجتى . . . فدرا . . . ميراندا ، بولاندا . . فيلليني .

(تدخل الفرقة الراقصة فى ملابس نصف عارية فى موجة من الموسيقى) .

شاخت : أنا حانسحب للمعمل بتاعى .

أنا راجل جد مش بتاع الحاجات دى .

(يخرج شاخت مسرعًا) .

(فدرا ترقص رقصة خليعة فيها تعبيرات حب وجنس وخمر ومرح . . تصفيق وتهليل ، قبلة بينها وبين الراقص فرنسوا فى ذروة الرقصة ، ثم نراها تمر على الجالسين فتقبلهم فى مرح) .

(تجلس على ركبتى باركر يدللها وتدلله) .

باركر : بقعة الأمان الوحيدة فى هذه الأرض الخراب هى شفتى فدرا (يقبلها) .

(تصفيق تهليل تهريج) .

(تجرى إلى كلينوف تعانقه) .

كلينوف : مرفأ السلام الوحيد فى الدنيا هو حضن فدرا .

(تصفيق وتهريج) .

الإمبراطور بوكاسا : (يشير إلى ساق فدرا) متعة الحياة الوحيدة هى اتنين كيلو لحمه ضانى من هنا . . إمبراطورية بوكاسا مش ممكن تعيش من غير حمام وغزلان للتلاجة الإمبراطورية .

(يمتشق سيفه ليرقص رقصة همجية حول النار وحول فدرا) - (يهتف)

أنا الإمبراطور بوكاسا صاحب الحق الإلهي فى أن يأكل ويقتل ويفعل ما يشاء . . (يصرخ) هايل ماريام . . هايل منجستو

(تقدم له كؤوس دم فيشربها) .

(تصفيق تهييج) .

(سباجتى البهلوان الإيطالى يرقص رقصات بهلوانية يضع عدة سلالم فوق بعضها بسرعة ليصعد إلى القمر ثم يتدحرج واقعًا) .

(ضحك . . مرح . . شرب) .

(مسرحية سيرك قصيرة عن العرش العالى ، أو الكرسى العالى الذى يتسلق عليه الأقوياء ، ويقلب الواحد منهم الآخر ويجلس مكانه . . وكيف يصعد كل واحد على أكتاف الآخرين حتى يصل إلى فوق ثم يدفع بهم فيتكورون فى كومة من اللحم على الأرض) .

(الكل يتقارعون الكؤوس وقد نسوا أنفسهم تمامًا) .

يدخل المسرح عدد من الخيول المدربة . . تجرى فى دائرة . . ثم فيل يسوقه كلب . .

(أبطال السيرك يغنون» :

العب واكسب

العب واكسب

القرش بألف

والعالم أدّ الكف

والكلب يسوق الفيل

والعالم سيرك كبير

والشاطر يكسب

والشاطر يكسب

والشاطر يركب

والشاطر حايمشى الكون

كلينوف : (يقوم سكرانًا) عندك وَقّف . . انا حاركب .

باركو : (معترضًا) لا أبدًا ممنوع أنا سيدك . . أنا أول من يركب .

الرجل الصينى : (متقدمًا) ولا انت ولا هوّ . . اليوم يومى والدور دورى وأنا حاركب . . بالذوق أنا حاركب بالقوة أنا حاركب .

(يتشابك الثلاثة ويتماسكون بالأيدى . .) .

باركو : ابعد عنى أحسن لك . . ده أنا عندى قنبلة ذرية تخلى بلدكو كنافة . .

كلينوف : (يضحك ساخرًا) وأنا عندى صاروخ حايخلى بلدكو قرافة

(مفستو – الرجل الشيطانى الانتهازى فى خبث يكلم نفسه وقد انتحى جانباً)

– أيوه جدع . . إديله كمان . . خرب . . . دمر . . ولع . .

شعلل خلى العالم بركان

عُضّ ياواد فى اخواتك عُضّ

اتخانقوا . . اتخانقوا . . واقتلوا بعض

وأنا فى الآخر . .

حاورث وحدى كل الأرض

وآكل الأكلة بكل لطافة

وأنا سيد مين يركب

على ضهر الموجة العوجة

ويعوم فى المية السيالة
ها أو أو . . أو . . أو . . أو
الرجل الأفريقى : وأنا فين بين الأكَّالة .
الايطالى سباجتى : إنت الغدوة والعشوة يا بوريالة
(المجموعة تغنى) :
العب واكسب
العب واكسب
القرش بألف
والعالم أد الكف
والكلب يسوق الفيل
والعالم سيرك كبير
والشاطر يكسب
والشاطر يكسب
والشاطر يركب
والشاطر حايمشى الكون
(مجموعة تشرب على مائدة) .
(رجل منتشى وآخر مهزوم وحولهما آخرون) .
النشوان : يا خمرة يا ملهمة يا عصير النفوس .
المهزوم : يا خمرة يا مجرمة يا طاحونة فلوس .
النشوان : بتنورى المخ زى الفانوس .
المهزوم : وبتاكلى فى الجته زى السوس .

النشوان : يا خمرة . . يا دم جو الكؤوس .

المهزوم : مين اللى باعك . . يا ساعة ناقصة التروس بتوقف العمر قبل الأوان .

آخرون : يا ساق . . هات الشهد . . هات الشراب .

آخرون : هات السبرتو . . ولع الأعصاب .

المهزوم : هات العذاب . . أنا جاى أبيع الدهب بسعر التراب . . وأبيع سنين الشباب من غير تمن .

آخرون : (يصفقون) يا ساقى . . هات . . هات .

(فجأة نسمع صوت شاخت قادمًا وهو يصيح أوريكا . . أوريكا . . وجدتها كما قال أرشميدس) .

(يدخل وقد طفح الفرح على وجهه) .

– وجدتها . . وجدتها . . وجدتها . . وجدتها .

باركر : إيه . . إيه . . وجدت إيه .

شاخت : (فى حماس) الحل . . إنقاذ العالم ، المعادلة الجديدة للطاقة ٢ كب + ط ٤ = ١٣ ع م ش ص ض تربيع .

كلينوف : إيه ده .

شاخت : المعادلة الجديدة اللى حانطلع بيها الطاقة من التراب . . ونحول مية المجارى لفراخ خلاص مش عاوزين بترول . . عندنا دلوقت طاقة جديدة ممكن تحول التراب لدهب . تحول مية البحر لشعلة نار تعمل من المخلفات المرمية بروتينات غذائية . . انتهت المشاكل . . العلم الألمانى صنع المعجزة . .

باركر : إيه ده . . إنت بتتكلم جد .

- تعالوا معايا المعمل شوفوا بعنيكم .

(يهرول الكل خلفه) .

(تظلم القاعة تدريجيا) .

(تضيء غرفة الدكتور شاخت . . نرى كل الموجودين متزاحمين ليشاهدوا التجربة المثيرة .

الدكتور شاخت يوصل عدة أسلاك كهربائية ويضبط عدادات وأجهزة ثم يضع يده على مفتاح تحويلة) .

شاخت : ده جهاز إلكترونى أنا وضعت فيه حفنة تراب . . ودلوقت حابدأ العد التنازلى وحاتشوفوا التراب يتحول لطاقة والحديد يبقى دهب بمجرد ما أوصل التحويلة .

(لحظة الصفر يضغط الدكتور شاخت على مفتاح التحويلة)

(يحدث انفجار مروع) .

(تندلع فجأة عدة شرارات فى المعمل ثم يبدأ فى الاحتراق تماماً . . الدخان يغطى على كل شيء . . نسمع صرخات . . ثم صمت كامل) .

(حينما يبدأ الدخان فى الانقشاع . . نرى نوح وأحمد والملكة ميريام واقفين وسط جثث القتلى والأنقاض) .

نوح : انتهى النصف الباقى من سكان الأرض . . انتهت دنيا الباطل

(الاثنان فى صوت واحد) :

لا إله إلا الله .

(إظلام تام كامل ثم عودة إلى السماوات الزرقاء والملاك الراوية يغلق الكتاب

مسبحًا ومن حوله الملائكة يسبحون . . مع موسيقى علوية غاية فى الصفاء) .

لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله .

(كورس وأصوات متداخلة وموسيقى هارمونية) :

لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . .

(ختام)

سُكر وَلمُونُ

عيبي الوحيد يا سادة ياكرام هو غرامي بالتسجيل ووضع أجهزة التصنط والتسمع . وأشهد أمام الله أن هدفي بريء ولا علاقة له بإضرار الناس ، أو إبلاغ السلطات ، وإنما أفعل هذا لأغراض غير بوليسية . ولأهداف بريئة تماماً هي جمع مادة علمية . والقيام بإحصاءات دقيقة ، ودراسات عميقة . في مسألة السعادة الزوجية والحب والعلاقات الإنسانية . واستنباط قوانين التطور والتقدم ، ورصد حركة المجتمع في سيره من أيام العربة الكارو إلى عصر الذرة والصاروخ .

وفيما يلي تسجيل واقعي أمين لمجموعة لحظات تروي قصة الحب والزواج بين اثنين على مدى عشرين سنة من العمر السعيد المديد :

وأترك الكلام لجهاز التسجيل .

المشهد الأول

(ركن منعزل فى كازينو بشارع الهرم تحت أباجورة حمراء .
من الميكروفون المعلق فى أغصان الشجر تسيل فى عذوبة موسيقى ضوء القمر لشوبان .
على المائدة يميل شبحان لشاب وفتاة فى صبوة العمر الخدان متلاصقان الأنامل متشابكة . . والأقدام متعانقة . . الكلام همس .
الفتى فى يده كوب من الليمون) .

هى : ماشربتنش ليه . . أحط لك سكر .

هو : إنتى سكر . . دوِّبى لى حته من شفايفك يا سكر .

هى : نفسى أدوب لك عمرى كله .

هو : وأشربك .

هى : شفطة شفطة .

هو : تمشى فى عروقى فى دمى فى جسمى فى روحى .

هى : نبقى واحد .

هو : ما نعرفش مين هو مين .

هى : زى السكر واللمون فى الكباية ماحدش يقدر يفرقهم .

هو : ولا النار تقدر تفرقهم .

هى : أنا مش مصدقة .

هو : إيه .

هى : واحشنى وانت قصاد عينى .

هو : لما حانتجوز حانقفل علينا الأوده . . طول الليل والنهار .

هى : طول السنة .

هو : وناكل ازاى .

هى : ناكل بعض .

هو : آكلك من شفايفك . . كده . .

هى : ياى . .

(قبلة طويلة . . ثم حالة إغماء على موسيقى شوبان) .

المشهد الثانى

(فى بيت الزوجية بعد ثلاث سنوات من المشهد الأول فى بلكونة تطل على النيل .
الزوجة ترضع طفلاً . . الرجل يقرأ فى جريدة .
على المائدة سكر وليمون وماء مثلج) .

هو : هاتى لنا مية من الحنفية . المية باردة أوى . . بتعمل لى التهاب فى الزور أنا عندى لوز .

هى : أنا قمت وقعدت عشرين مرة . . مرة لمون مرة سكر ، مرة كباية ، مرة دورق مرة تلج ، مرة بلاش تلج ، مرة المية ساقعة ، مرة المية سخنة . . مرة نزلت اللوز . . مرة طلعت اللوز . . أنا اللى طلعت روحى . . إنت فاكرنى إيه . . مركبة زمبلك . . مش شايف الداهية اللى فى إيدى . . إنت ما عندكش دم . . إنت

ماعندكش إحساس . . ماعندكش ذوق .

هو : (يبدو أنه متعود على مثل تلك الزوابع) يا ستى دى حكاية كانت ممكن نجهز كلها مرة واحدة . . فيه لمون من غير سكر وتلج ومية ودورق وكبايات ؟! ليه الحاجة تبقى ناقصة وأنا اللى انشتم كل مرة .

هى : وانت مش بنى آدم زيى . لك إيدين ورجلين ما تهز لحمك شوية وتخدم نفسك .

هو : أنا لسه جاى من الشغل مش قادر أتحرك .

هى : (تضع الطفلة فى حجره) طب خد رضع الزفتة دى على بال ما أخدم سيادتك يا بلك ياكبير .

هو : (فى صوت خافت) أعوذ بالله (يكلم نفسه) ده أنا اتجوزت شيخ غفر .

(تنطلق هى لتعود كالصاروخ فى يدها دورق ماء من الحنفية تضعه أمامه فى عنف وتخطف الطفلة) .

هى : خذ اشرب . . اطفح . . اتسمم . . بالهنا والشفا .

هو : متشكر يا ستى . . الله يسامحك .

هى : يسامح مين . . يسامحنى واللا يسامحك . . مين فينا اللى جنى على التانى .

هو : يسامحنى أنا . . أنا المجرم الجانى الظالم المفترى السفاح اللى جنيت على شبابك ، وضيعت عمرك ، وميلت بختك ، ودبلت جمالك أنا (يضرب نفسه بالكف على صدغه) أنا اللى أستاهل ده كله .

هى : أيوه كده اعرف نفسك كويس .

المشهد الثالث

(فى نفس البلكونة بعد عشر سنوات .

الزوجة الآن سمينة مثل الثور الاسترالى . . لفافات التبغ تحترق فى فمها سيجارة بعد سيجارة ، كأنها مدخنة ورائحة فمها لا تطاق من السجائر . . حولها أربعة أولاد .

على المائدة نفس أدوات الليمونادة .

الزوج يضع على عينيه نظارة سميكة ويطالع كتاباً .

الزوج على عكس زوجته قد أصبح نحيلاً ممصوصاً هضيمًا شاحبًا) .

هو : (فى قرف) اللمون معطب والسكر فيه نمل .

هي : طبعًا لو كانت الهانم الجميلة الفاتنة مدام سهير معانا دلوقت وهى اللى بتعمل لك اللموناتة . . كانت بقت من إيديها شهد . . عسل نحل .

هو : مين مدام سهير .

هي : عشيقتك . . رفيقتك . . يا خاين . . يا غادر . . فضحتنى فى العمارة . . جرَّستنى فى الحتة كلها . . الناس كلها بتتكلم . . ويا ريت الحكاية وقفت عند سهير . . وسناء . . وسلوى . . إلا بقيت بتاع كله . . مفيش واحدة جربوعة إلا تبص لها . . مفيش خدامة إلا تبحلق لها . . مفيش كلبة إلا تشاور لها .

هو : إيه الكلام الفارغ ده يا وليه ، أبص لمين وأبحلق لمين . . دنا لابس نضارة قعر كباية . . دنا مش شايف أمشى . . دنا اتعميت . . دنا بحسِّس .

هى : وماله . . تحسس برده . . على سبيل التجديد . . فراغة العين ماالهاش حدود عند المجانين اللى زيك .

هو : أنا اللى مجنون يا وليه يا مورستان . . يا وليه يا خانكة . . يا ولية وطى حِسّك . . صوتنا بيوصل لآخر الشارع . . الناس تقول فيه حرامى فى الشقة . . أو حريقة . . أو مصيبة .

هى : إنت اللى مخلّيها حريقة ومصيبة . . إنت اللى مخلى عيشتى جهنم . . لكن يكون فى علمك . . أنا لسه بجمالى وشبابى . . أنا بمشى فى الشارع بتقف لى العربيات .

هو : نعم ياختى ؟!.. بتقف لك إيه ؟!

هى : بتقف لى العربيات .

هو : (ساخرًا) قصدك عربيات الرش . . وعربيات البطيخ . . وعربيات النقل (يضحك) وعربيات السبارس .

هى : إخرس قَطْع لسانك . . عربيات السبارس دى عشانك وعشان أهلك .

هو : أهلى كمان .

هى : إحنا نمشى ورانا عربيات شيك . . العربية عشر متر .

هو : أنعم وأكرم ناس بهوات صحيح .

هى : لكن إحنا ما بنرضاش . . أصلنا ناس متربيين .

هو : ونعم التربية ما هو باين .

هى : كان ممكن أجيب مليون جنيه فى اليوم .

هو : (ضاحكًا) ليه . . إنت قناة السويس .

والله لو اتفتحت قناة السويس ومشيت فيها بواخر أمريكا ما تجيب مليون جنيه فى اليوم ..

هى : حضرتك بتتريق .

هو : لا . . أبدًا أستغفر الله . . أنا أقدر أمس الشرف الرفيع اللى بيجيب مليون جنيه . . ده حضرتك مورد سياحى (ينفجر فى ضحك هستيرى) .

هى : (صارخة) يعنى إيه . . يعنى مش عاجباك . . يعنى مش مالية عينك (متشنجة وباكية ولاطمة وجهها) . . يا بختى المايل اللى وقعنى فى الراجل الدُّون . . الراجل الندامة . . الراجل اللى مايسواش . . الراجل الخسيس .

هو : يا وليه بلاش خناق . . أنا جالى فتق من الزعيق .

هى : فتق . . يا مصيبتى . . يا خيبتى . . يا هوتى . . كمان فتق . . فضل فيك إيه !

المشهد الرابع

(بعد عشرين سنة .
فى نفس البلكونة . . خمسة أولاد . . الزوجة الثور . . والرجل الممصوص هذه المرة يتوكأ على عصا . . أمامهم المائدة عليها أدوات الليمونادة) .

هى : (تقوم وتقعد فى عصبية) تطلع تنزل عاوزة ميت جنيه حالا .

هو : منين يا وليه . . إنتى مش واخدة ميه وخمسين جنيه إمبارح . . أنا حادقّ فلوس .

هى : وإيه ميه وخمسين جنيه . . دول ميه وخمسين مليم فى الغلا اللى إحنا عايشين فيه . . ميه وخمسين مليم . . هايجيبوا أكل والا حايجيبوا شرب .

هو : والله الموجود . . معنديش غير كده .

هى : طبعاً داير توزع فلوس على أهلك الشحاتين . . داير تفرق على الخدّامين الهلافيت يمين وشمال ، فاتح بيتى لأهلك الصايعين . . والله أنا مش متجوزاك إنت وأهلك . . ولما انت أهلك بتوع فجل وجرجير كنت بتتجوز ليه البهوات اللى زينا . . إنت لازم تعرف إن أنا بنت بلك وأنى مش وش العيشة الزفت دى .

هو : (فى هدوء) والله بلاش العيشة الزفت دى وروحى للبلك أبوكى . . أنا مش عاوزك .

هى : (تصرخ) إنت بتكْرشنى . . إنت بتطْرُدنى . . بعد عشرين سنة خدمة بتطردنى .

هو : والله بقى إحنا ناس بتوع فجل وجرجير ، وحضرتك من البهوات . . حرام تغصبى نفسك على العيشة الدُّون دى . . أنا كمان ما يخلصنيش . . اتفضلى من غير مطرود على قصر عابدين بتاع أبوكى .

هى : وكمان بتتجرأ وتقولها . . إنت فاكر إن أنا قاعدة عشان خاطرك . . إنت فاكر إن أنا غاوية وِشّك النكد . . ده لولا الولاد كنت سبت لك البيت على الصرمة القديمة .

هو : آدى . . إحنا فيها .

هى : (تصرخ فى غيظ) وكمان بتقولها ثانى يا ندل يا سافل . . يا قليل الأصل (تخطف دورق الليمون وتدشه على رأسه فيخطف العصا ويضربها على رأسها ينتهى المشهد على صراخ الأولاد وتجمع الجيران ودم وشاش . . وقطن . . وأربطة . . وصبغة يود . . ويا دهوتى الحقونى . . الراجل حايقتلنى) .

* * *

(بعد أسبوع .
مذيع برنامج على الناصية يعترض الزوج فى الطريق) .

المذيع : نتعرف بحضرتك .

– الدكتور عبد الجليل . . إيه خير .

– برنامج على الناصية بياخد آراء مختلفة فى استفتاء كبير عاملينه عن السعادة الزوجية . . حضرتك متزوج .

– جدًّا .

– مخلِّف .

– بشدَّة .

– سعيد .

– مُوت . . (يتحسس الأربطة الشاش وحزام الفتق) .

– الست زوجتك لها نشاط اجتماعى .

– ونشاط سياسى كمان وحياتك ، ومشتركة فى جميعة نسائية ، ولها دور تربوى ، وحط خطين تحت الدور التربوى ده .

– عظيم . . عظيم . . يعنى امرأة عصرية من كل الوجوه .

– آخر موديل . . بنت النهاردة .

– إيه رأيك فيها كست بيت .

– مديرة مالية لآخر مليم فى جيبى وفى جيب الجيران كمان .

– محدثة .

– ماحدش يقدر ينافسها لأن صوتها أعلى من الكل .

– مُطّلعة .

– وفيلسوفة وفلكية وجغرافية وجيولوجية وتتكلم فى كل موضوع بدون سابق اطلاع .

– عجيبة .

– جدًّا .

– ذاكرتها قوية .

– تحفظ أكثر من مائة رقم تليفون عن ظهر قلب .

– نموذج هايل .

– ربنا يوعدك بواحدة زيها .

– تفتكر إيه نتيجة ظهور هذا النوع الجديد من المرأة العصرية فى بلدنا ؟

– حاتكتر القهاوى وغرز الحشيش والبارات .

المذيع : (لا يبدو عليه أنه يفهم) ليه .

– عشان الرجالة اللاجئين المهجَّرين اللى زيى واللى زيك اللى حايطفشوا من جنة السعادة الزوجية .

(المذيع يبدو عليه البلاهة ويغلق الميكروفون) .

إلى هنا يا سادة يا كرام تنتهى التسجيلات الخاصة بالدكتور عبد الجليل ومدام عبد الجليل . . وهى واحدة من مئات التسجيلات التى أخذتها من مئات البيوت . . وللأسف أغلبها يشير إلى حالة تدهور عام فى العلاقات الزوجية .

واسمحوا لى فأنا من أب فقير وأم فقيرة ، ومن عائلة من بسطاء الناس ، حظنا من التعليم متوسط ، ومع ذلك لم أسمع فى بيتنا المتخلف مثل هذا الحوار الساقط الذى يملأ شرائط التسجيل فى بيوتنا العصرية .

والظاهر أنى إنسان غبى جدًّا لا أفهم .

لا أفهم لماذا يسمون هذا الذى جرى للمرأة . . تقدمية . قد أكون سيئ الحظ فى انتقاء النماذج فلا تقع يدى إلا على الحالات الشاذة أو المرضية .

ولكن يبدو على قدر فهمى . . أننا نتقدم فقط فى الأدوات والماكينات وفى الكهرباء والمغنطيسية . . ولكننا كآدميين نسير إلى الخلف . . لا محبة لا إنسانية . . وإنما ناس يأكل بعضهم بعضاً بالشوكة والسكين (وهذا كل أثر المدنية) .

ومرة أخرى أرجو أن أكون مخطئًا .

وأرجو أن يصححنى القراء ويبعثوا إلىّ بتسجيلات من بيوت عصرية طيبة تبعث على التفاؤل وتساعدنى فى البحث الذى أكتبه عن حركة التاريخ من عصر الكارو إلى عصر الصاروخ .

الوهم والحقيقة

ذات صباح فى طيبة الفرعونية .
الجميلة «نى» تكحل عينيها بمكحلة من العقيق .
تختال راقصة كأنها فراشة .
تغنى وهى تنظر إلى الشاب الجميل «بتاح» الذى ألقى بصنارته ليصطاد عند الشاطئ .

يا حبيبى . . كم هو جميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل أمامك .

وأجعلك ترى جمالى ، وقد التصق ثوبى المبتل بجسدى فأظهر تفاصيله .

تعال وانظر . . وحذار أن تلقى علىَّ شباكك فأنا سمكة صغيرة تفلت من جميع الشباك .

(بتاح يلتفت نحوها باسمًا ويغنى) .

إلهتى حبيبتى . .

ليتنى كنت جاريتك التى تقوم على خدمتك ، لأرى لون جسدك كله .

ليتنى كنت الخاتم الذى فى أصبعك ، والسوار الذى فى ذراعك ، والعقد الذى على صدرك .

ما أسعد الذى يلثم فمك ويستنشق النسيم العذب الخارج من شفتيك .

طويلة العنق جميلة الثدى .

ساحرة العينين حينما تنظرين .

ذراعك يفوق الذهب فى طلاوته .

أما أصابعك فبراعم اللوتس .

سلبت روحى مع قبلتك .

(يجلس الحبيبان فى حضن جميزة عتيقة) .

بتاح : غدًا نتزوج يا حبيبتى .

– أنسيت أن الغد هو عيد الحصاد ، وسأرقص فى قصر الملك .

– وسوف أغنى أنا أيضًا مع المنشدين .

– إذن نؤجل يومنا السعيد عدة سويعات أخرى .

– ستكون سويعات أطول من السنين والدهور .

– كلما طال الوقت طاب الثمر .

– واشتاقت الأيدى للقطاف .

(يمسك يدها فى حنان ويكتب الاثنان اسميهما على الجميزة) .

– سيعيش اسمانا هنا ألف عام . . ويخلد حبنا .

(يقبل يدها) .

(تنفلت منه بسرعة عائدة إلى بيتها) .

(فى المساء وهى تغمض عينيها لتنام تغمغم مترنمة كأنما تهدهد طيرًا فى حجرها) .

فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى .

طلبته فما وجدته .

أنعشونى بشراب الورد فإنى مريضة .

أحلم بمن أحبه بين ذراعى .

أحلفكن يا بنات طيبة بفراشات الحقل ألا توقظننى من حلمى .

(مساء الغد بعد الحفل وقد عاد بتاح حزينًا يمشى بأكتاف محنية وظهر محدب) .

(يدخل على أبيه الحكيم «يويا» وينهار على صدره باكيًا) .

– أبى . . سوف يأخذ الملك حبيبتى منًى . . لقد خطبها وقبلت خطبته . . رآها ترقص أمامه فخلبت لبه . . أتسمعنى . .

«تى» قبلت أن تكون زوجة للملك . . ولم تتردد ولم ترفض .

– لا توجد امرأة ترفض أن تكون زوجة للملك يا ولدى .

– ولكنه ملك عجوز بلا أسنان ، جلده مغضن مثل تينة عفنة وله سبعون زوجة وجارية وخليلة .

– المرأة يطربها كثيرًا أن تكون المفضلة على سبعين .

– وأنا . . ما مصيرى .

– تغنى يا ولدى كما تعودت أن تغنى .

– حتى أموت .

– بل سيجود صوتك وتحلو نبراتك وستبكى جيدًا ، وتجعل الناس يبكون جيدًا بلا تكلف أو افتعال .

– سوف أموت من الحرمان .

– لا أحد يموت من الحرمان ، وإنما الناس تموت من الشبع . . الحب يولد فى الخيال ويموت فى الفراش . . يقتله الارتواء . .

الارتواء هو الذى يميت يا ولدى أما العطش فيحيي .

- وماذا ستفعل «تى» من بعدى .

- سوف تصبح ملكة . . وهذا أمر يسعد المرأة أكثر من أن تكون زوجة لصياد يلقى المواويل .

- وستبكى كثيرًا .

- نعم ستبكى كثيرًا . . ولكن هموم الملك سوف تشغلها بعد ذلك عن البكاء .

(بتاح يدفن وجهه فى صدر أبيه) .

- سأموت . . سأموت يا أبى .

- ما أحلى صوتك وأنت تنوح من قلبك يا ولدى . . سوف تفتن الناس ، سوف ينقشون اسمك على أعمدة المعابد ويتغنون بك . سوف تكون خالدًا مثل رع وحورس وآمون .

- سأموت . . سأموت .

- بل ستخلد . . ستخلد .

* * *

(فى القصر الملكى .

الملك العجوز سنفرو كارع على سرير الملك يصرخ فى حاشيته) :

- أين أطبائى . . أين كهنتى . . ملعونون جميعًا . . لَمْ أنم البارحة من الألم . . لم يفلح الطبيب سمنحور فى علاج النقرس . . اشنقوه على باب القصر . استدعوا لى طبيبًا آخر (يبتسم فى أمل) غدًا أدخل على عروسى الجميلة «تى» وتدفئنى بجسمها ، وتدلكنى

بصدرها ، وتداوينى من آلامى ، وتعيد إلىَّ حرارة الصبا . . أين الكاهن «خنسو» وأعشابه التى تعيد الشباب ؟

أين الطبيب حور محب ومستشاروه ؟ أين حم أيون وعقاقيره السحرية ؟ أين الحكيم «يويا» الذى لا تخيب نصائحه ؟

(يدخل الطبيب حور محب) .

- ماذا عندك اليوم لى . . ما هى فتاويك أيها الطبيب الحاذق .

- استحضرت لك مرهمًا من أعشاب نادرة ، وشرابًا قابضًا سوف يردان لك عافيتك .

(يدخل طبيب آخر يسمونه «راعى شرج الملك» متخصص فى علاج البواسير . . يميل على الملك ويعطيه لبوسًا . . فى حين يتداول عدد من المستشارين الطبيين والكهنة والحكيم «يويا» فى كيفية بث الحياة فى هذه الجثة الملكية) .

(نسمع الملك يصرخ من بينهم) .

- أين رئيس الحرس . . لا أريد تمثالاً لأحد غيرى فى طول البلاد وعرضها . . لا ينقش على الأعمدة إلا اسمى ولا تقام التماثيل إلا لى . . لا ملك فى هذه الأرض سواى . . أنا سنفرو كارع ملك الوجهين القبلى والبحرى ، وابن الإله رع . . مقدس إلى أبد الآبدين .

- لقد أزلنا عددًا كبيرًا من تلك التماثيل يا مولاى .

- حطِّموها كلها .

- سمعًا وطاعة يا مولاى .

(يطرقع أصابعه العجفاء ويعود إلى الابتسام) .

– غداً أدخل على عروسى الجميلة « تى » وتدفئنى بجسمها ، وتدلكنى بصدرها ، وتداوينى من آلامى . . ما أمتع الحياة . . وما أروع أن يخلد الإنسان ويهزم الموت .

(الحكيم «يويا» وقد انتحى جانباً يهمس بصوت خافت إلى الطبيب) .

– ذلك العجوز العفن الذى ينقع نفسه فى الماء والملح كل يوم مثل الرنجة ليطول عمره .

حقًّا ما أعظم حكمتك يا إلهى . . كما نعالج الحديد بالنار تعالج أنت المتكبرين بالهوان . . هذا الملك قد جعلت منه شحاذاً يشحذ الحياة ساعة بساعة ، ويشرب الصاب والعلقم ، ويمضغ الحنظل ، ويدلك نفسه بالمراهم الكريهة ، ويضع فى شرجه لبوساً ليتسول لحظة إضافية من حياة تعسة لا تساوى تكاليفها . . ثم بعد ذلك تلقنه الدرس الأخير . . الموت . . المؤدب الذى يعلم كل الذين لا يتعلمون .

(الملك ما زال يطرقع أصابعه العجفاء ويهمس فى تلذذ) :

– غداً أدخل على عروسى الجميلة « تى » وتدفئنى بجسمها البض ، وتدلكنى بثديها المستدير الشهى مثل رمانة من بابل .

* * *

(بعد ثلاثة آلاف سنة . . فى نفس المكان .
عالم آثار ومعه عدد من الحفارين ينبشون الأرض بمعاولهم .
العالم الأثرى يشاور على قطعة الأرض أمامه) .

– هنا تنام ثلاثة عصور فوق بعضها . . عصر فرعونى ، ومن فوقه .

عصر رومانى ، ومن فوقه عصر فاطمى . . هنا كنز أثرى كل شبر تراب فيه يساوى ثقله ذهباً .

إذا استطعت أن أمسح هذا المكان مسحًا تاريخيًا أثريًا كما أشتهى فسوف أكتب بحثًا خالدًا .

(أحد العمال يعثر فى التراب على مُكْحلة . . فيهرول بها إلى عالم الآثار . . يتناولها العالم بيد ضنينة ، ويقلبها أمام بصره ، ويفحصها بعدسة مكبِّرة) .

– مكحلة من العقيق من العصر الفرعونى . . على أى عمق وجدتم هذه المكحلة ؟

– على عمق ستين قدمًا .

– معنى ذلك أننا قريبون من مقابر سنفرو كارع الذى يشك فى وجوده التاريخيون . . احفروا . . احفروا بهمة وبلا توقف . . سوف نكشف اليوم كشفاً عظيماً . . ونضيف إلى كتب التاريخ صفحة خطيرة مفقودة .

(ما زال يقلب المكحلة ويهمس) :

– ترى أى عين اكتحلت بهذه المكحلة . . وأى نظرة حانية كانت فى تلك العين وهى تكتحل . . وأى دموع سكبتها . . وعلى من سكبتها .

* * *

(بعد ثلاثين يومًا من الحفر .

ما زال العمال يحفرون . . ولا يخرج إلا التراب .

وعالم الآثار يروح ويجىء فى يأس ويغمغم فى انفعال) :

– أين سنفرو كارع ؟

(فيجيبه مهندس الآثار فى حيرة) :

- لعله كذبة . . ولعل العلمـاء على حق فى الشك فى وجوده .

- والعصور الثلاثة .

- هذه هى العصور الثلاثة أمامك .

(وأشار المهندس الأثرى إلى آلاف الأطنان من التراب) :

- تراب . . تراب . . تراب . . هذه هى العصور الثلاثة . .

أنشودة الدم

مسرحية من فصل واحد

الوقت ليل . .

فى الخلفية نرى صحراء مقابر العلمين . . مئات من الصلبان الخشبية تبدو متراصة على الرمال كنباتات قصيرة جرباء . . يبدو الطريق الأسفلت الذى يؤدى إلى مرسى مطروح .

فى جانب نرى كشكًا خشبيًا يقف فيه عسكرى إنجليزى .

فى الجانب الآخر قطاع من استراحة العلمين فيه غرفة واسعة ، وسرير ومائدة ودولاب وكرسيين وساعة مستديرة على الحائط .

الرياح تعوى فى الخارج .

صوت وشوشة البحر . . وأمواج عالية . .

رعد وبرق ومطر ينزل ثم ينقطع ثم يعود إلى النزول من جديد . .

نرى الحارس الإنجليزى يخرج زجاجة نبيذ من جيبه ويجرع منها فى شراهة ثم يدندن ويغنى :

– دولالا . . دولالا . . لا لا . .

(يبدو أنه وحيد فى هذا المكان الموحش . . وأنه ملول . . وأنه يحاول أن يغرق

وحدته فى الشراب وفى الغناء بصوت جهير . . مجرد دندنة بلا معنى . .) .

– دو . . لالا . . لالا . . لالا . .

(يتهالك على الكرسى متحدثًا إلى نفسه) :

– أوه . . هذا الجو البارد . . وهذه الريح التى تصفع الوجه . . يا لهذا المطر اللعين الذى لا يريد أن ينقطع . . أشعر كأنى كنت واقفاً هنا من ألف عام . .

يعود إلى الغناء . .

– دو . . لا لا . . لا لا . . لا لا . .

(يتوقف مصغيًا إلى صدى صوته ويغمغم وهو يتأمل المكان حوله) :

– لا فرق بين لحظة وأخرى فى هذا المكان الموحش . . لكأن الوقت لا يمر . . لكأنها الأبدية التى نعيش فيها بعد الموت والبعث . . يا له من مكان .

(نراه يدخل الكشك ويخرج حاملا منفضة ويتجه إلى الجانب الآخر الذى فيه الاستراحة . . يدخل الغرفة . . يبدأ فى تنفيض الأثاث وترتيبه . . يسمع طرقًا على الباب . . يستدير فى دهشة) . :

– من هناك ؟

(يسمع الطرقات واضحة) .

(يذهب إلى الباب يفتحه . . لا يجد أحدًا) .

(يخرج إلى الخلاء ويتلفت حوله وهو يصيح) :

– هيه . . هو . .

(لا أحد يرد . . ولا أحد يرى من قرب أو من بعد . . تسمع من جديد الطرقات على عدة أبواب) . .

(يتلفت فى دهشة وذعر) :

- هيه . . هو . . مَنْ هناك . . من الذى يطرق الأبواب . .

(لا أحد يرد . .)

(يهمس إلى نفسه) :

- أهى العفاريت (تسمع الطرقات بعيدة خافتة . . يرسم علامة الصليب على صدره) . . يا إلهى . . ليحفظنا المسيح . .

(يسمع صوت عربة على الطريق الأسفلت . .
يرتفع صوتها رويدًا رويدًا . .
وتظهر مقدمتها ومصابيحها عند أول الطريق . .
نرى الحارس يتأهب للقائها . .
تقترب العربة وتتوقف عند الكشك . .
العربة من نوع الفورد القديم الذى كان يركبه نبلاء زمان . .
يفتح باب العربة . .
وينزل رجل مهيب فى حلة سوداء ، وفى يده صندوق يشبه صندوق الجيتار .
سن الرجل حول الأربعين . . ولكنه ممشوق بادى الصحة . . يبدو عليه مظهر السادة الذين تعودوا أن يلقوا بالأوامر . . وجهه مهيب صارم الملامح وجبهته عالية وعيناه نافذتان مشعتان . . نسمعه يسأل الحارس) :

- هنا استراحة العلمين .
- نعم يا سيدى .
- هل أستطيع أن أجد غرفة خالية لمبيت المساء .
- مؤكد يا سيدى .
- حسنًا . .

(يمد الحارس يده ليحمل عنه الصندوق) :

- دعنى أحمله عنك .
- لا . . لا شكرًا . .

(يتقدمه الحارس إلى الاستراحة) .

- تفضل من هنا . .

(يقوده إلى الغرفة الواسعة بالاستراحة) .

(الحارس خارجاً) :

- لحظة واحدة . . سآتى لك بأغطية ثقيلة . . إن الليلة باردة . .

(نرى الحارس يخرج إلى الخلاء . . ذاهبًا نحو الكشك . . نراه يقف فى الطريق ويعصر ذهنه متسائلاً) :

- أين رأيت ذلك الوجه من قبل . . إنى رأيته . . أنا واثق أنى رأيته . . ربما فى صورة . . ربما فى صحيفة . . وربما رأى العين . .

يا له من رجل شامخ الجبهة مثل نابليون . .

لكأنه قائد فرقة من الكوماندوز . .

لكأنه بسمارك . . أو غليوم . . أو . . أنا واثق أنى رأيته . .

أين . . ومتى . . وكيف . .

(يعصر رأسه ثم يهزها يائسًا . . يدخل الكشك ثم يخرج ومعه بطانية من الصوف . . يذهب بها نحو الغرفة . . نراه ما يزال يهز رأسه محاولاً أن يتذكر) .

(يدخل الغرفة ومعه البطانية) .

(يضعها على السرير) .

(ينظر إلى الزائر الذى أخرج غليونه وبدأ يدخن) :

- هل أستطيع أن أتشرف بمعرفة السيد . .

- مجرد مسافر على الطريق أمره لا يهم أحدًا . .

(وهو يهيىء له الغرفة) . .

- أنت متواضع جدًا يا سيدى . .

(الزائر ينفث الدخان بعدم اهتمام . . ولا يرد) .

- وهل يبقى سيدى عندنا طويلا . .

- ربما ليلة وربما بضع ليال إذا أعجبنى الجو وواتانى الإلهام . .

(الحارس فى دهشة) . . :

- الإلهام . . تقول الإلهام .

- نعم . . فأنا أتجول من سنوات باحثًا عن بيئة تلهمنى لأكمل ملحمتى الشعرية . .

(الحارس فى دهشة أكبر) :

- ملحمتك الشعرية . .

- نعم . . فأنا أكتب ملحمة شعرية . . عن الحرب . .

- أوه . . أنت إذن شاعر . . يا لها من سعادة أن ألتقى الليلة بشاعر عظيم . .

- وكيف عرفت أنى شاعر عظيم ؟

- لابد أن تكون شاعرًا عظيمًا . . لابد أن تكون رجلاً عظيمًا هكذا قال لى إحساسى منذ أن رأيتك . .

- هذا عجيب . .

(الحارس يقف مترددًا) . .

(الزائر مشاورًا له ليجلس) :

– اجلس . . إن الليل طويل . . والسمر يحلو فى مثل تلك الليالى ، لابد أنك تعرف الكثير عن المكان . . يبدو أنك اشتركت فى تلك الحرب ؟

– نعم كنت جنديًا فى الفرقة الخامسة .

– عظيم .

– لا شك أنك تعجب لأنى اخترت الإقامة فى هذا المكان الموحش فى الوقت الذى كان باستطاعتى فيه أن ألحق بزملائى فى انجلترا .

– هذا فعلاً اختيار غريب .

– أما بالنسبة لى فإنه ليس غريبًا على الإطلاق . . فليس لى أهل هناك فى انجلترا ، وإنما كل أهلى وأحبائى هنا . . فى هذه المقابر

(يشير إلى مئات الصلبان مرددًا فى تألم) . .

هنا حياتى . .

(لحظة صمت) .

(يعود الحارس إلى الكلام مشيرًا بأصابع مرتجفة) :

– وهنا يرقد شارل . .

– شارل . . ؟

– أنت لا تعرف شارل . . لو أنك عرفته كما عرفته أنا لما استطعت أن تفارقه حيًا أو ميتًا . .

– إنى أود أن أعرفه كما تعرفه . .

(الحارس يحرك يديه وينظر إلى المائدة الخالية . . وإلى الساعة التى تدق الثانية بعد منتصف الليل) :

- لقد نسينا . أنت لا شك لم تأكل شيئًا طوال هذه الرحلة . . والسفر كان مضنيًا والطريق طويل . . هل تأذن لى فى أن أحضر شيئًا للعشاء . . إن حكايتنا سوف تطول . .

- شكراً . . لا مانع . .

(يخرج الحارس وهو يفرك يديه . . ونراه فى طريقه إلى الكشك يغمغم فى فرح) :

- إنه شاعر . . يا لها من ليلة رائعة سوف أقضيها مع الفن . .

(يدخل الكشك ليلبث قليلاً ثم يخرج ومعه الطعام ، وهو يغمغم مخاطبًا نفسه) :

- ولكنى رأيته من قبل . . أقسم أنى رأيته . .

(بينما نرى الزائر فى نفس الوقت يقوم ليتمشى بالغرفة يتأملها وهو يخطو ذاهبًا آيبًا فى خطوة عسكرية كأنه قائد . .
يعود الحارس حاملاً الطعام «صينية عليها خمور ولحم وخضر طازجة وجبن ومزات مختلفة») .

(ينظر الزائر بابتسامة) :

- أوه . . هذه وليمة . .

- إنها سعادة أن أخدم على مائدة شاعر عظيم . .

- أشكرك . . تفضل معى . . أرجوك . . اجلس . .

(يجلس مترددًا . . يلفت نظره صندوق القيثار الكبير فيقول سائلاً فى نبرة وجلة) :

- يبدو أن سيدى يعزف على الجيتار !

- **(فى دهشة وهو ينظر إلى الصندوق)** الجيتار . . ؟ آه . . نعم إنها هواية قديمة . . لم أستطع أن أتخلص منها . .

– هذا رائع . . شاعر . . وموسيقار . .

(لحظة صمت . . الحارس يصب كأساً لضيفه . . ويقدم له طبق اللحم فى إعجاب وانبهار . . يصب لنفسه كأساً) .

الزائر : ولكنك لم تحدثنى عن صديقك شارل ! .

– شارل . . نعم . . يالها من أيام . . (يسرح ويبدو عليه الحزن) إن الحرب شىء فظيع . . (ثم يلوذ بالصمت) .

– لم تقل لى كيف مات صديقك ؟

(الحارس يبدو ساهمًا شاردًا . . يمسح جبهته . . لحظة صمت) . .

الحارس . كانت ليلة الهجوم الكبير فى العلمين (يحجب عينيه كأنه يرى أضواء تؤلمه) قصف المدافع . . ونيران القنابل الحارقة . . وأزيز الطائرات ، ودمدمة الرشاشات . . وهزيم الدبابات . . ما زالت تصك أذنى كأنها تحدث حولى اللحظة ولم تمر عليها كل تلك السنين . .

ليلتها كان كل هؤلاء (يشير إلى ساكنى المقابر كما يبدون من النافذة) يملئون تلك الساحة الخلاء بالحركة والحياة . . وكانت هذه السماء مضيئة بآلاف القنابل . . ولولا صرخات الموت هنا وهناك لخيل للواقف هنا أنه فى محفل سماوى رائع . . إن منظر الدم يسكر . . أقول لك إن منظر الدم يسكر (عينا الحارس تلمعان) ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من جربها . .

إنك تخاف من الحرب ، وترتجف من أهوالها طالما كنت بعيداً عنها ، تسمع أخبارها على ألسنة الرواة ، وترى صورها فى

الصحف ، أما إذا عشت فى معمعانها ورأيت الدم يتفجر من حولك ، فإن رأسك يدور ، وحلقك يجف ، وتتحول إلى حيوان مفترس لا يعرف الخوف . . حيوان عطشان للدم . .

إن أسنانك تصطك الآن لمجرد تصور السونكى فى يديك وأنت تدفعه فى قلب رجل وتستل منه الحياة . .

– إن أسنانى لا تصطك صدقنى (فى نشوة) إنه لمنظر شائق وشاعرى أن أرى الموت رأى العين . . وأرى الدم يتفجر كالينبوع من القلب .

– (يحملق فى وجهه بدهشة) إنه الجنون عينه . . لابد أنك عشت هذا الجنون . . لا يقول هذا الكلام إلا من فقد عقله يومًا ما فى تلك اللعبة المجنونة . .

– من يدرى ربما فقدت عقلى يومًا ما هناك . .

– إن مهنة القتل تنبت مخالب فى هذه الأيدى الناعمة (يشاور على يديه) اقتل . . اقتل . . اقتل . . اقتل . . اقتل فى حماس وهمة إذا أردت أن تنتهى من كل شىء . . يا لها من نشوة بشعة . .

– ماذا فعل صديقك تلك الليلة ؟

– كنا ساعتها نحارب فى مركز أمامى . . وكان علينا أن نتقدم ببطء تحت ستار من قنابل المدفعية . . وكنا نزحف على بطوننا كزوج من الأفاعى . وبين لحظة وأخرى نرفع رءوسنا لنلتى بقنبلة يدوية ، ثم نعود ندفن رءوسنا فى الرمل ، ونزحف من جديد (يصمت لحظة) وفجأة ظهرت أمامنا دبابة معادية شقت الضباب ، وسحب

الدخان . وأطلت برأسها كخرتيت قبيح . وأخذت تتقدم نحونا بخطى رهيبة ضاربة حولنا سياجًا كاسحًا من النيران . . وكل لحظة تمضى كانت تقربنا من موت أكيد . .

موت أكيد يمد نحونا أذرعاً أخطبوطية من اللهيب والرصاص . .

والأمل واحد فى المليون . .

معجزة . .

أن نلقى بقنبلة فتسقط فى تلك الفجوة الصغيرة فى برج الدبابة وتنفجر فى سائقها . .

فجوة من عدة ستيمترات يجلس فيها الموت .

ونحن نلعب معه لعبة كرة السلة .

من يضع الكرة فى السلة ؟

والموت يقترب . .

وأسمع وقع خطاه الحديدية وكأنه يمشى على أضلاعى . . وأرتجف . . وأشعر أنى مشلول تمامًا . . وأتلفت حولى باحثًا عن نجدة ، فأرى ذراع صديقى شارل ترتفع بقنبلة يدوية تلقى بها فى الهواء . . ثم لحظة صمت وصرير الدبابة تقترب . . ثم انفجار مروع وتتوقف الدبابة . .

لقد حدثت المعجزة . . ونزلت القنبلة فى البرج . .

ويقفز شارل ليحتضننى وهو يصيح . . هورا . . هورا . . لقد انتصرنا . . ثم أشعر بريح ساخنة تلفح خدى وشىء يصفر ويمرق كالبرق إلى جوار أذنى . . ويسكت شارل . . والتفت إليه فأجده

ما زال يحتضنى بذراعيه . . ولكن يا إلهى . . لقد أصبح بلا رأس . . فقد أطاحت شظية برأسه من بين كتفيه . .

ومكان الرأس فجوة رهيبة يتفجر منها الدم كالنافورة . . ولكن ذراعاه مازالتا تحتضنانى فى نشوة خرساء . . يا لها من لحظة فظيعة . .

كان يمسك بى بكلتا يديه . . جثة بلا رأس . . لا يريد أن يفارقنى حيًا ولا ميتًا . . وكنت مازلت أسمع صيحته .

هورا . . لقد انتصرنا (فى صوت باك) انتصرنا . .

(لحظة صمت طويلة . . الحارس يلتقط أنفاسه ثم يغمغم . .).

– كانت ليلة رهيبة . .

أحيانًا يخيل إلىَّ أنها كانت كابوسًا .

وأحيانًا أتذكرها فلا أصدق أنها حدثت هكذا كما رأيتها فى الواقع ، وأنى عشتها بحواسى وطالعتها بعينى . .

نعم . . لقد انتصرنا . .

وعاد منّا إلى الوطن من عاد . .

ورقد تحت التراب من رقد . .

ولكنى لم أستطع العودة مع العائدين . .

كنت أشعر دائمًا بذراعى شارل الحنونتين تضمانى . .

وكنت أشعر أنى أحيا مع الأحياء ، لأنه أراد لى أن أحيا . .

وافتدانى بدمه . . ولم أستطع أن أفارقه . .

وطلبت من القيادة أن أبقى حارسًا على مقبرته فى هذا المكان

الموحش ، فهنا كانت حياتى . . وهنا كان مولدى الثانى . . وسيكون مرقدى الأخير . .

(يسكت الحارس ونرى عينيه تلمعان . .) .
(يطول سكوته . .) .
(يصب كأسًا من الزجاجة ليجرعها دفعة واحدة كأنما ليطفئ نارًا شبت فى داخله) .
(عينا الزائر تلمعان . .) .
(عويل الريح فى الخارج . .) .
(رعد وبرق وأمطار . .) .

الحارس : (فى صوت خافت) سيدى . . ماذا تقول فى هذه الحرب ؟

الزائر : (يلقى برأسه إلى الوراء ويترنم) .

الموت فى ثوان
والمجد فى ثوان
وزبدة الحياة
طعمة النيران
بوركت حياة
على شفا بركان
وسيوف تغسل آلاف الأدران
وتداوى سرطان الإنسان
من سرطان الإنسان

(الحارس فى نشوة وعيناه تلمعان) :
– هذا رائع . . لكأنك كنت هناك تحارب معنا . .

إنك شاعر تقول الشعر من قلبك .
كلماتك رصاصات . . ألغام . .
(الزائر عيناه شاردتان . . يلقى بأبيات أخرى) :
ما أجمل السكنى
فى ذلك الوادى بلا سكان
ما أجمل الصمت والسكون والخواء
حيث لا منى ولا رجاء
ما أجمل الزمان ينسج الأكفان
يتوج الهامات بالريحان
يزرع الخلاء بالصلبان

الحارس : نعم . . هذه هى الحرب .
هذه هى الحرب بعينها .
(لحظة صمت) . .
(عويل الرياح فى الخارج) .
(رعد وبرق وأمطار) .

الحارس : لكم أحب أن أسمع معزوفاتك على هذا الجيتار (مشاورًا على الصندوق) لابد أنها رائعة مطربة مثل أشعارك .
(الزائر فى ابتسامة غريبة وعيناه تلمعان ينظر إلى الصندوق) :
– أوه . . هذا الجيتار . .
(يميل على الصندوق ويفتحه) .
(الحارس يفغر فمه يكاد يغمى عليه وهو ينظر بداخل الصندوق فلم يكن هنالك

جيتار ولكن مدفع رشاش) . .

(الزائر عيناه تلمعان ويتطاير منهما الشرر وهو ينظر إلى الآلة القبيحة الجهنمية الراقدة فى الصندوق .

يميل على المدفع الرشاش يلتقطه من مكانه .

ثم ينتفض فجأة على قدميه واقفًا فى وضع استعداد ويده على زناد المدفع . .

الحارس يقفز إلى الوراء مذعورًا) :

– سيدى . . أنت لا شك تمزح . . هه .

– (فى صوت معدنى بارد لا أثر للإحساس فيه) لا . . أنا لا أمزح إنها صناعتى الحقيقية . . أنا قاتل صناعتى القتل . . أما الشعر فهواية أمارسها فى أوقات الفراغ .

– ولكن .

– (فى صرامة) وقد حان وقت العمل . . وعلينا الآن أن نقتل . . كفى ما قضيناه من وقت طوال هذه الليلة المتراخية فى الكسل وقرض الشعر .

– ولكن يا سيدى . .

– (فى صوت فظيع) أريد أن أقتل . . أريد أن أقتل (تجحظ عيناه ويشرع مدفعه الرشاش وتمتد يده إلى الزناد وتفتر شفتاه عن أسنان ثلجية قاسية وتظهر عليه تلك السحنة المقلوبة التى يعرفها جيدًا كل من تعامل مع قتلة وسفاحين) .

الحارس : (فى توسل) ولكن يا سيدى . . بحق المسيح ماذا تريد أن تقتل هنا . . إن كل من تراهم حولك قتلى بالفعل (يشاور على المقابر) أكثر من ٨٠ ألف قتيل تحت هذا التراب . .

الزائر : (فى هدوء وبرود) إذن لابد من إحيائهم من جديد لأقتلهم ثانية .

الحارس : (يكاد يضحك وقد أيقن أنه أمام مجنون ملتاث العقل) ولكن يا سيدى كيف ؟

الزائر : هذه هى سنة الحياة ،

– ومن الذى وضع هذه السنة .

– القادة والمصلحون من أمثالى .

– وهل القادة والمصلحون صناعتهم القتل ؟

– (صارخًا) نعم أيها الأحمق . . لابد أن يكونوا قتلة لينظفوا الأرض من الحثالة القديمة ويعدونها لغرسهم الجديد .

– إنها لقصة بشعة .

– بل هى أغنية رائعة . . قصيدة . . معزوفة موسيقية بديعة . . انظر . .

يبدأ فى الضغط على الزناد ويطلق الرصاص فى الهواء بينما الحارس يقفز يمينًا وشمالاً من الرعب والزائر يرقص مختالاً بمدفعه ، وكأنه عاشق يخاصر معشوقته ويرقص بها . . ويطلق الرصاص فى كل اتجاه فى نشوة وهو يقول بصوت بارد :

– إنك لن تصبح قائدًا . . إلا إذا استطعت أن تقتل وأنت تغنى . . لن تستطيع أن تصنع الحياة إلا إذا صنعت لآخرين الموت . . هذه سنة الوجود .

– ولكن هذا شىء فظيع .

– أنت تقول هذا لأنك رجل تافه . . أنت واحد من ألوف التافهين

بلا إرادة . . ممن لا عمل لهم سوى أن تصدر إليهم الأوامر . . أوامرنا . . لن تكون شيئاً فى يوم من الأيام . . أنت وغيرك مسامير صغيرة فى العربة التى نقودها . .

– هذا أفضل من أن أقود عربة هى فى الحقيقة عربة الموت والفناء . .

الزائر : أنت مسمار فى هذه العربة . . أردت أم لم ترد

(يطلق الرصاص فى كل اتجاه وهو يضحك بينما الحارس يقفز فى رعب يميناً وشمالاً) .

(يكف عن الإطلاق . . وينظر فى إشفاق إلى الحارس المذعور) :

– يبدو أنه لا أمل فى شفائك من هذه التفاهة . . إن لقاء الموت فى حرب صادقة لم يعلمك شيئاً . .

– لقد تعلمت . . لقد تعلمت أنه لا فائدة . . الغالب والمغلوب كلاهما رأيتهما مهزومين خاسرين أمامى . . لقد أفلس الكل ولم يكسب أحد . . وربما كان المنتصر الحقيقى هو المهزوم . . فبلادى العزيزة المنتصرة تمد أيديها لتشحذ وتقترض اليوم من ألمانيا . . بلادى التى طردت ألمانيا من أوربا تقف اليوم مطرودة من أوربا شحاذة على بابها . . فيم كانت هذه الحرب الصادقة كما تسميها ؟

– ألمانيا الفكرة انهزمت . . وهذا فيه الكفاية . . ألمانيا النازية والفاشية انهزمت وانسحقت . . لا يهم بعد ذلك أن تنتصر ألمانيا الناس . فهم هناك يعيشون بالفكرة الجديدة التى أرادها لهم الحلفاء وهذا انتصار كاف . لقد انتصرت فكرتكم . . وهى التى

تحكم ألمانيا الآن . . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

– الفكرة . . الفكرة . . ولكننا آدميين ولسنا أفكارًا . . نحن بشر نريد أن نعيش لا أن نشحذ .

– ولهذا سوف تشحذ لأنه لم تعد فى رأسك أفكار . . وحينما يفلس العقل فهذه بشارة بأن الإفلاس الكامل فى الطريق .

– وهل يحمل لنا مدفعك الرشاش ثراء ؟

– إنه يحمل لكم المجد .

– المجد . . المجد لمن . . المجد لك . . (يقفز من مكانه) إنى أعرف ذلك الصوت وتلك النبرة . . وهذه القامة المشرعة . . لقد رأيتك تسير فى مقدمة كل جيش منذ أن ظهرت فى العالم جيوش واشتعلت حروب . . وسمعتك فى كل مناسبة تجمل رحلة الموت بالشعر وتزينها بالعبارات الرنانة البليغة . . إنى أعرفك . .

(يصيح) أنت الشيطان ذو الألف وجه . .

(يبتسم الزائر . . ثم يضحك . . ثم ينفجر فى ضحكة شيطانية مجلجلة . .) .

الحارس : أنت سفاح هذه المقبرة . . لقد أطعمت هذه الليلة قاتلى وجلادى . . أنت الذى قتلت شارل ونزعت رأسه من بين كتفيه .

– هذه المسألة يترك الحكم فيها لشارل . . ربما لو بعث حيًّا لشكرنى على هذه الخدمة . . ثم إنه كان لابد سيموت على أى حال . . فما الذى يمنع من أن يموت ميتة درامية فيها كل هذا الفن . . أن تطير رأسه هكذا من بين كتفيه . . صدقنى إنها صورة شعرية

وأدبية رائعة . . إنها تبدو شيئاً كالمجاز ، وكرموز الأساطير والأحلام إنها ميتة فيها الكثير من الابتكار والتجديد . . هل تنكر أنها تصلح صورة أو تمثالاً أو حدوتة مثيرة . .

ـ ولكنه كان يريد أن يعيش .

ـ أوه . . هذه مسألة أخرى . . كلنا نريد أن نعيش ومع ذلك نموت أليس كذلك . . ؟

ـ بعد أن نطعن فى السن ونقضى أوطارنا من الحياة . . ولكنه مات طفلاً .

ـ يا لها من قصة مؤثرة محركة للشفقة .

ـ وهل مثلك يعرف الشفقة .

ـ (فى حركة مسرحية) أنت لا تعرفنى . . إن قلبى يتدفق بأنبل العواطف والمشاعر . . إن عملى هو الاشتغال بالعواطف ، وهل كان ممكناً أن تقوم كل هذه الحروب بدون عواطف ؟ !

ـ عواطف كاذبة .

ـ هذا ليس شأنى .

ـ أنت وراءها أنت تحركها وتثيرها . .

ـ هذا دأبكم دائمًا . . تكذبون كل يوم ثم تمسحون أكاذيبكم فىَّ وكأنى أشعلت هذه الحروب وحدى (يهزه) أيها الأحمق إنى لا أحرك فيكم شيئًا ليس فى طينتكم . . هيا افرد وجهك . . فلا شىء يبدو أغبى من الإنسان حينما يدعى العصمة والفضيلة ويزعم أن الشيطان هو الذى دفعه إلى كل شىء (يتلفت حوله باحثاً)

أى شيطان . (يبحث تحت السرير . وتحت الملاءة . . وفى سلة المهملات) .

إنى لا أرى شياطين هنا . . لقد هربت الشياطين من زمان . . من أول طلقة بندقية .

أيها السرجنت الأحمق أفق من أحلامك . . وصب كأسًا ثانية لقائد فرقتك البريجادير وطسون . .

(ينتفض الحارس واقفاً . . ويؤدى التحية العسكرية وهو يهتف) :

– سيدى البريجادير . . يا إلهى كيف غاب عن ذهنى هذا الوجه كم أنا أحمق . .

الزائر : (فى ابتسامة) هذا حسن ما دمنا نعترف بأغلاطنا فى النهاية (يخرج من جيبه نيشانًا) نيشان لك مكافأة على اعترافك بالحقيقة (يضع النيشان على صدره) .

(الحارس يعود فيضرب سلامًا آخر ويؤدى التحية العسكرية) :

– سيدى البريجادير . . إنها سعادة كبرى أن ألقاك . .

(يمد يده مصافحًا فى إكبار واحترام) . .

الزائر : والآن اجلس فليس أمامنا وقت نضيعه . .

(يجلس فى وقار وخوف) ،

(البريجادير يبسط على المائدة خريطة تفصيلية للمواقع الحربية ويشير بأصبعه) :

– ٨٠ ألف قتيل علينا أن نعمل على إحيائهم فوراً . . لنقتلهم من جديد .

(الحارس يقوم وهو يرتجف وينظر إلى زائره فى اختبال قائلاً فى تهتهة) :

- سيدى البريجادير .
- (فى صرامة) الحرب هى الحرب . . لابد أن نقاتل . . أتعرف ما معنى أن تكون جنديًّا ولا تقاتل . .
- ولكن يا سيدى (يضرب سلامًا وهو يرتجف) .
- وما معنى أن تضع النياشين على صدرك ولا تفعل شيئًا . . معناه أن تشتغل فى التشريفة . . أو فى اصطبلات الخيل . . أو فى البلدية . . أو تسير على أحسن الحالات وراء الموتى (يخبط المائدة بيده فجأة ويصيح) إذا كانوا يريدون السلام لماذا يسلحوننا بالمدافع الرشاشة ؟ لماذا يملئون المخازن حتى تطفح بالقنابل والمتفجرات ؟ لماذا يصنعون المقاتلات والصواريخ ذات الرءوس الذرية ؟ . لماذا ؟! ليطلقونها فى الأعياد أيها الأحمق . . ومثلى . . كيف يستطيع أن يثبت أنه بريجادير كفء . . بالمشى فى الاستعراضات كل سنة ؟!
- إنهم يفعلون هذا لحماية السلام .
- ليحمون أنفسهم من أنفسهم . . هيه . . اعتراف صريح بالنيات الخبيثة المضمرة .
- إنه الخوف . .
- كل واحد يلبس درعًا من حديد تحت قميصه لأنه خائف من الآخر ، ويحشو مسدسه لأنه خائف من الآخر ، ثم يطلق الرصاص من فرط الخوف فى النهاية . . إنها نفس القصة كل

مرة . . لا . . . إن السلام لا يمكن أن يبنى على الخوف . . هذه مغالطة . . بالمحبة والثقة والنيات الحسنة وحدها يقوم السلام . . هذه هى الحقيقة البسيطة .

- هذا رائع يا سيدى .

- ولكنى لست قس الأبرشية لأقول هذا الكلام . . أنا البريجادير وطسون . . إن لباسى العسكرى والنياشين على صدرى تكذبنى وتفضح صناعتى . . إننا نقول كلاماً ونفعل كلاماً آخر . . إننا كذابون . . كذابون . . لا شياطين هناك . . نحن الشياطين كلنا . . كلنا . .

(ينتفض الحارس مؤديًا التحية العسكرية مرة أخرى بينما يصرخ الزائر) :

- علىَّ بالذخيرة . . الذخيرة . .

(أمطار ورياح معولة فى الخارج) .
(يخرج الجندى وهو يتلفت حوله فى خبال ويرتجف) .
(نراه يقف فى الصحراء حائراً . . لا يعرف ماذا يفعل) .
(الزائر فى الغرفة يصيح) :

- الذخيرة .

(أمطار ورياح مزمجرة . . الغرفة تهتز . . ثم يتقطع النور على المسرح ثم ينطفئ تمامًا . . لحظة ظلام) .
(صوت فى الظلام . . الذخيرة . . علىَّ بالذخيرة . . علىَّ بالذخيرة) .
(حينما يضىء النور من جديد نرى الجندى عائدًا إلى الغرفة . ولا نرى بالغرفة أحدًا . . إنها مرتبة منظمة كما رأيناها فى بداية الفصل) .
(والحارس يتلفت حوله فى اختبال وهو يتهته) :

- سيدى البريجادير . . سيدى البريجادير ..

(المائدة نظيفة لا أثر لعشاء بها) .

(الحارس يبحث فى كل مكان وهو يغمغم) :

- أين ذهب الرجل . .

(يتفحص الجدران . . يصيح) .

- سيدى البريجادير . . أين أنت ؟

(يبدو عليه الذعر الشديد) .

(صوت نقرات على الباب) .

(نقرات على كل الأبواب) . .

(الحارس يتلفت كالملتاث) .

(نسمع صوت طلقات مدفع رشاش ولكننا لا نرى شيئًا) .

(ونسمع صوت البريجادير وكأنه خارج من الحائط . .) :

- وداعًا يا صديقى . . لن أغيب طويلاً . . سوف أعود إليك فى القريب ، وحينئذ يكون الألوف من ساكنى هذه المقابر قد ولدوا من جديد وتكون هناك فرصة لمذبحة جديدة (طلقات المدفع الرشاش) .

(الحارس يقفز مرعوبًا فى الهواء) .

الصوت : لا تخف لن أقتلك . . إن قتل فرد واحد ليس من أخلاقنا . . إنها عادة المجرمين . . أما القادة المصلحون أمثالنا فإنهم لا يقتلون أفرادًا ، وإنما يقتلون بالألوف وبالشعوب جملة . . إن عملية الإصلاح عملية شاقة صدقنى .

ليلة سعيدة . . وتمنيات طيبة لأمواتك . . ولقاء قريب . .

(صوت موتور عربة يبدو عاليًا . . ثم يبتعد رويداً رويداً . .) .

(الحارس يقفز خارجًا) .

(ينظر إلى الطريق) . .

(لا يرى شيئًا) . .

(نراه يرسم علامة الصليب على صدره ويغمغم) :

- يا ربي . . إنها الشياطين . . الشياطين . . ليحمنا الرب .

(ستار الختام)

الكنـــز

(فى الغرفة ٥٢ بفندق باليما بالرباط ينزل عالم الآثار الإنجليزى مستركالدويل . . رجل نحيل ممصوص محنط ، يخيل إليك أن عمره ألف سنة . . يلبس طقم أسنان ومونوكل . . ويده ترتجف باستمرار ، ودائمًا تجد تحت إبطه كتابًا . . وغالبًا ما يكون هذا الكتاب مخطوطًا قديمًا متآكلاً ، ولكن يضمه فى حنان كأنه ابن عزيز .

ومستركالدويل يحب الكلام . شأن كل من أمضى عمره فى التدريس . . وهو دائمًا يتكلم عن الماضى .

والماضى عند مستركالدويل هو أيام بابل وآشور ومنف ، فذاكرته تبدأ من ألفى سنة إلى الوراء).

التقيت بالمستر كالدويل فى مقصف الفندق . . كان وجهه يفيض بالسرور والانشراح ، وتحت إبطه جاروف وفأس .

مال علىَّ ثم أخرج من جيبه خريطة من ورق قديم مهلهل ، وبسط الخريطة بيده المرتجفة على المائدة ، ثم راح يشير بأصبعه وهو يهمس :

- هل تعرف هذا المكان . . إنه مكان هنا فى الرباط . . عند المقابر . . ولكنه طبعاً لا يمت إلى هذا العصر . . فهذه الخريطة كما ترى خريطة قديمة جدًا من أيام الإمبراطور صوكليسيان .

هل تعرف الإمبراطور صوكليسيان ؟

فظهر على وجهى الجهل التام . . وأردف يشرح :

- إنه الإمبراطور الرومانى الوثنى الذى قتل وأحرق آلاف البربر

المسيحيين .

(ثم عاد يشير بأصبعه المرتجفة إلى علامة بالأحمر فى منتصف الخريطة ، وراح يغمغم بنبرة مشحونة بالانفعال) :

– وهنا بالضبط كنز .

(وأعجبته ملامح الاهتمام التى كست وجهى فقال) :

– وأنا الآن ذاهب لأكتشف هذا الكنز .

(ولوح بالجاروف والفأس) .

– هل تذهب معى .

(فقلت له بلا تردد) :

– فوراً .

(وتركت فنجان القهوة دون أن أشربه وخرجت أهرول خلفه) .

(وفى أثناء الطريق كان مستركاللدويل يتكلم عن أيام صوكليسيان وكان يتوقف بين لحظة وأخرى ليقول) :

– هنا كانت توجد قلعة رومانية مكان هذا المسجد ، وهنا كانت توجد حمامات رومانية . . وهنا كان ملعب .

وكأنه يتمشى فى أماكن ولد فيها ويعرفها بيتًا بيتًا .

ووقف أمام أحد البارات ليتحدث عن معركة رهيبة حدثت بالسلاح الأبيض منذ ألف سنة .

وطلب منى الوقوف صامتًا دقيقة حدادًا على أرواح الشهداء .

ووقفت على مضض وعقلى لا يفكر فى شهداء ولا فى معارك ، وكل خيالاتى أصبحت تجرى وراء شىء واحد هو الكنز .

ليس لدينا وقت .

الكنز .

وكان يخيل إليّ في تلك اللحظة أن جميع علماء الآثار قد عرفوا الطريق إلى ذلك الكنز ، وأنهم يسابقوننا إليه .

وشددته من ذراعه لأستعجله .

ومضينا في الطريق .

وأمام قرافة على أطراف البلدة ، توقف المستركالدويل وبدأ يجيل البصر حوله ، ثم يتحقق من الخريطة ، ثم أشار إلى مكان على اليسار قائلاً :

من هنا .

ثم بدأ يتسلق سور القرافة ، وأنا أتسلق خلفه .

وظهر لنا شرطي من وراء السور كأنما انشقت عنه الأرض . .

وقلت لنفسي . . ضاع الكنز وسوف نبيت الليلة في زنزانة القسم . . ماذا سنفعل في هذه المصيبة .

ولكن مستركالدويل الذي كان قد أعد لكل شيء عدته أخرج الباسبورت وتذكرة الهوية وإذناً خاصًّا بالتنقيب ، وسلمها للشرطي ، فتراجع هذا خطوة إلى الوراء وحيّانا بأدب معتذراً وانصرف . . وقلت لنفسي إن مستركالدويل هذا أعظم من شرلوك هولمز . . وشعرت بالثقة والأمان وباليقين ، إننا سوف نعود بكنز لم يسبق له مثيل .

ورحت أحلم بصناديق الذهب وعقود اللؤلؤ والماس .

وعادت بي الذاكرة إلى أفلام المغامرات ، وكيف كان البطل

الغواص يكتشف سفينة القرصان القديمة الغارقة ، ويتسلل إليها ثم يخرج حاملاً ذلك الصندوق الرهيب .

وكان مستر كالدويل قد توقف وأشار بأصبعه وهو يقارن الخريطة بالمكان :

- هنا يكون الحفر .

وبدون أن أنتظر دعوة منه ، أخذت منه الفأس وبدأت أعمل بهمة ، وأخذ هو يعبث بالجاروف فى الأتربة التى تخرج من الحفر . وفجأة سمعته يصيح :

وانحنى يفحص قطعة حجر بعدسة مكبرة فى يده وهو يهتف : نعم . . بالضبط . . إنها كتابة . . يا إلهى . . من يصدق . . وبهذه السهولة . . وبهذا القرب من السطح إنى أحلم . . هذا مستحيل . . هذا أمر مدهش . . هذه معجزة .

ولم أفهم شيئاً .

وأخذ منى الفأس وبدأ يحفر فى حنان شديد ويدق بالفأس كأنه يدق على قلب حبيبه .

وما لبث أن خرج بقطعة حجر أخرى ، ثم بلوح مكسور إلى عدة قطع ، ونظر فى اللوح ثم صرخ وهو يناوله لى :

- إنه هو . . يا إلهى لماذا لا تصرخ معى ؟ لماذا لا تجن ؟

- أجن على ماذا ؟

- على الكنز .

- أى كنز .

- هذا الذى بين يديك .

- ليس بين يدى سوى قطعة حجر .

- انظر فيها . . اقرأ . . اقرأ . .

- هذه شخبطة لا معنى لها . .

- إنها ألواح صوكليسيان يا رجل . . إنها ثروة أثرية تساوى ألف مليون جنيه .

ورحت أقلب الحجارة القذرة دون أن أفهم شيئًا . . هل من أجل هذه الحجارة جئنا ؟! وتبخرت أحلام الذهب والماس وكنوز القراصنة . . وشعرت بخيبة أمل لا حد لها ، ووجدت نفسى أقول له فى حسرة :

- حسنًا . . ومتى سنحصل على الألف مليون جنيه ؟

(وأجاب فى استنكار شديد) :

- يا سيدى هذه أشياء لا تباع . . هذا كنز للتاريخ لأنه لا يوجد من يملك ثمنه .

قلت له متوسلاً :

- يمكننا أن نتنازل قليلاً ونبيعه بمليون .

(فنظر إلىّ فى احتقار شديد) :

- إنها تكون جريمة . هذه خبطة أثرية للمتحف البريطانى ، ومادة توضع عنها عشرات الدراسات والبحوث والنظريات . . هنا مجد . . مجد .

ومضى يحفر فى هستيريا ويجمع كومة من الحجارة القذرة فى

مخلاه .

ووقفت أتفرج وأنا أؤكد لنفسى أنى لابد رجل جاهل جدًا لا أفهم فى الدنيا شيئًا .

وفى الطريق إلى الفندق كان مستر كالدويل يتكلم بسرعة مائة كلمة فى الدقيقة ، وكان يخيل إلى أن الرجل جن .

وكان أول ما فعله عند وصوله إلى غرفته أن أفرغ المخلاة على الأرض وركع يفحص كل قطعة حجر وهو يكاد يقبلها من الفرحة .

وأسرع يحرر عددًا من البرقيات .

وطالب الناس على التليفون عدة مرات .

ولا شك أنه لم ينم تلك الليلة .

وقضيت أنا الليلة أفكر وأخبط كفًا بكف وأقول : هذه الدنيا مليئة بالمجانين . . ولكن الصباح التالى كان يخبئ لى مفاجأة أعجب . . فقد أقبل خدم الفندق وأنا أشرب القهوة وهم يهتفون فى ذعر . . تعال الحق صديقك .

وفى غرفة مستر كالدويل رأيت الرجل منهاراً على الأرض وهو يصيح بصوت مخنوق :

– الجـ . . الجرسون . . الجر . . الجرسون . .

– ماذا فعل الجرسون .

– رمى ألواح صوكليسيان فى الزبالة فى حين كنت فى مشوار بالبنك . وكان الجرسون واقفاً أصفر الوجه من المفاجأة يقول فى

حيرة وهو يقلب كفيه :

– يا سيدى لقد وجدت كومة من الحجارة القذرة المتربة مبعثرة على أرض الغرفة فكنستها ، ماذا كان متوقعاً منى أن أفعل غير ذلك .

– ولكنها ألواح صوكليسيان ، ألواح صوكليسيان .

– يمكننى أن أجمع لك كومة حجارة أخرى مثلها من الطريق يا سيدى .

وشعرت أن مستر كالدويل سوف يغمى عليه من هذا الرد ، وقال بصوت مشروخ :

– ولكنها ليست حجارة إنها ألواح صوكليسيان .

وتحولت نبرته إلى نحيب مختنق :

– ألواح صوكليسيان ، ألواح صوكليسيان .

ووقف الجرسون يقلب كفيه دون أن يعرف بماذا يجيب .

* * *

أفيش مثير

خيل إليّ لأول وهلة وأنا أنظر إلى القفص من بعيد أنى أرى بداخله زهرة فاقعة الألوان ، ولكن حينما اقتربت تبين لى أن ما حسبته زهرة لم يكن إلا الأعضاء التناسلية لقرد من ذلك النوع المعروف من قرود الكونغو التى تتميز بأعضاء تناسلية ملونة . . منظر مألوف يراه الأطفال فى حدائق الحيوان ويضحكون عليه .

ولكن بالنسبة لى كبيولوجى كان أمرًا مثيرًا للتأمل .
لماذا عادت الطبيعة فى هذا القرد إلى أسلوبها القديم .
إنها لم تلجأ إلى تلوين الأعضاء التناسلية إلا فى النباتات .
فالورد فى النباتات (بما فيه من أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث) دائماً ملون . . الطبيعة أضفت عليه ألوانًا جذابة مبهجة ، وأكثر من هذا جعلته فى مكان ظاهر ملفت على سطح النبات ، وكأنه وسام تفتخر به . . أما فى الحيوان فقد غيرت الطبيعة سياستها وعمدت إلى إخفاء الأعضاء التناسلية وطمس معالمها ، وإن كانت قد نسيت الشفاه والحلمة كأعضاء ثانوية ملونة على الوجه والصدر . .
الطبيعة كانت دائمًا مهتمة بعمل بروباجندا للتناسل ، بروباجندا على طريقة الأفيشات الملونة .

ولكنها فى الحيوان غيرت طريقتها وابتكرت طريقة أخرى أذكى هى الغريزة الجنسية . . تلك القوة غير المنظورة والعمياء التى تدفع بالذكر إلى الأنثى دفعًا دون حاجة إلى أفيشات .

كنت أفكر فى هذا وأنا أنظر إلى القرد الحبيس فى القفص وهو يلهو مسرورًا بأعضائه التناسلية الملونة ، ويشم أنثاه ويقفز حولها فى براءة فى حين يصفق الأطفال ويصفر الأولاد ويقذفون له بالسودانى والفول الحراتى .

وكان واضحًا أن هذا القفص بالذات قد فاز بأكبر مجموعة من الجمهور . وكان واضحًا أيضًا أن هذا القرد هو دائماً نمرة شباك رابحة بدليل قشر السودانى المتراكم فى قفصه بكثرة غير ملحوظة فى باقى الأقفاص .

وتذكرت الأفلام المصرية والمجلات التى تختار أغلفتها على طريقة هذا القفص .

وتذكرت البكينى . . والمينى جيب . . والسوتيان المودرن ذا الحلمة . . والكلوت المودرن ذا الشباك (ماركة تليفزيون) . والمخرجين الذين يسلطون الكاميرا على مؤخرة الراقصة . وسمعت من ورائى حديث امرأة فى الأربعين تهمس لزوجها الذى وخط الشيب رأسه .

– فاكر زمان فى أول جوازنا لما كنت عامل زى القرد ده .

– يا ولية اختشى .

وقهقهت المرأة وكان يبدو فى صوتها السعادة فى حين راح الرجل

ينفث الدخان فى عصبية من فمه ، ويأخذ عدة أنفاس دفعة واحدة من سيجارته ، ويجذب المرأة بعيداً عن القفص .

وإلى جوارى كان هناك شاب يضع ذراعه فى ذراع فتاة . . وكانت الفتاة تشيح بوجهها وقد تضرج بالحمرة ، والشاب يضغط يدها هامساً :

– برضه مصرة على إنك تروحى البيت دلوقتى .

- الساعة واحدة وزمان بابا جاى . .

– قوليله كان عندك محاضرات إضافية .

– مش معقول .

– مش معقول ليه .

– ما أقدرش قلت لك ميت مرة ما أقدرش .

– حانقعد نص ساعة بس .

– ولا دقيقة .

– طب نروح كازينو .

– أيوه كازينو معلهش .

– اشمعنى بقى .

– أنت عارف مبادئى .

– وهو يعنى لما تيجى تزوريني تبقى حاجة ضد مبادئك ، ولما نروح لمحالى تبقى متمشية مع مبادئك .

– عاوز تخدنى مصر الجديدة عندك أنت اتجننت .

– اتجننت ليه . . فيها إيه . . حانقعد نشرب شاى .

- طيب ما نشرب الشاى . . فى جزيرة الشاى .

(وضحك الاثنان . . وقالت الفتاة فى حزم) :

- اوعى تفتح الموضوع ده تانى . . سامع .

- سامع .

(ولكنهما ظلا واقفين أمام القفص) .

(ومضيت أتجول فى الحديقة) .

(ولكن موضوعاً واحداً ظل يلح على ذهنى . . ذلك السؤال البيولوجى الصرف) :

لماذا عادت الطبيعة إلى أسلوبها القديم مع ذلك القرد ؟!

لماذا عادت إلى طريقة الأفيشات الملونة فى الدعاية .

ألم تكن الغريزة كافية ؟!

وهل يمكن أن تحدث أمثال هذه الردة مع الإنسان فيخرج منا نسل له ذيل أو خياشيم أو عرف كعرف الديك ؟ أو رقبة كرقبة الزراف ؟ أو جناحين كالطيور .

هل كانت الطبيعة تلهو ؟

ونسيت حكاية الفتى والفتاة ، وانشغلت بهذا السؤال البيولوجى العويص .

وكان أمرًا مثيرًا للفزع أن تلعب الطبيعة معى هذه اللعبة فأنجب طفلاً له ريش ، أو طفلة لها درقة كالسلحفاة .

وإذا كانت الطبيعة ارتدَّت من الحيوان إلى النبات دفعة واحدة . فإنها يمكن أن تقع فى ردة أبسط من إنسان لحيوان مثلاً .

وكان الخاطر . . مجرد الخاطر فظيعاً جعلنى أنسى كل شيء .
وكنت أعلم كبيولوجى أن هذا ممكن .
وكلنا نقرأ فى الصحف عن طفل ولد بشعر ، وطفلة ولدت بأصابع غشائية كأصابع الضفدعة . . إلى آخر هذه المسوخ التى تمزح فيها الطبيعة مزاحها الثقيل المخيف .
لماذا تفعل الطبيعة هذه الأفعال ؟ هل وراء ذلك حكمة ؟ !
أو هو الخطأ كما يرتد الشيخ فيتصابى ويصبغ شعره ويبحث عن لوليتا ، ثم يرتد فى النهاية طفلاً يبكى على قطعة حلوى . . كذلك يمكن أن تخطئ الطبيعة .
كنت غارقًا فى هذه التساؤلات .
وكنت أشعر أن هذه التساؤلات أكثر من مجرد تساؤلات علمية فهى تمسنى شخصيًا . . بل هى تمس جنسنا كله .
وكنت أحك جبهتى باحثًا عن جواب .
وكنت قد بلغت باب الحديقة .
ورأيت الفتى والفتاة على الباب .
(كان يبتسم وانحنى يفتح لها باب التاكسى وهو يقول للسائق بصوت راقص من الفرحة) : على مصر الجديدة .
ثم يحيط خصرها فى حنان ويدفع بها إلى داخل التاكسى .
وتذكرت الحوار الهامس .
أخيرًا . أخيرًا وافقت .
شكرًا للقرد .

لا شك أنها وظيفة ثانوية لم تفكر فيها أمنا الطبيعة حينما سوت لنا القرد على هذه الصورة . . ولم يفكر فيها القرد أيضًا . لقد نجح الأفيش .

* * *

الرجل الذى تحول إلى ضوضاء

فى مثل تلك الساعة من الليل ، كان الكورنيش الممتد بطول البحر يبدو كثعبان ميت . . لا صوت . . لا حركة . . لا حياة . .

البحر يوشوش كأنه يقول كلمة السر .

وأعمدة النور شاخصة فى سكون كعفاريت تنصت وقد أشرعت رءوسها المضيئة . . والسماء خباء أسود ملىء بالخروق تطل منها ملايين العيون الدقيقة تومض وتبرق . . ورذاذ المطر ينزل شحيحاً من جو مشبع بالرطوبة لدرجة التخمة .

ورائحة الأصداف والطحالب تضوع بذلك العطر القديم قدم الطبيعة .

وصوت أنفاسى البطيئة تتردد مبللة هى الأخرى بالرطوبة . وأنا متكئ على سور الكورنيش أحملق فى الظلمة بلا نهاية . أصغى إلى وشوشة البحر . . أحاول أن أفهم كلمة السر . . من أين ؟ إلى أين .؟ وكيف .؟ وماذا ؟ وماذا وراء ؟ وما الغاية ؟ وما المعنى ؟ وما السبب ؟

أحاول أن أفهم اللوحة والرسم والرسام .

وأعود فأتذكر أنى لست سوى رسم صغير تافه ثانوى فى اللوحة الكبيرة . . مجرد خط . . بقعة لون . . نغبشة . . مثل هذه النغبشات الصغيرة التى تنعقد وتنحل على سطح الماء وتختفى بلا عودة .

نقطة فى طوفان .

أحاول أن أفهم .

والموج يعلو .

منذ ألف سنة كان الموج يغطينى .

لم أكن موجوداً .

وفى غيبوبة الصمت والسكون والإغراق فى التساؤل لم أسمع ذلك الصوت الذى كان يزحف سريعاً مقتحماً الشارع كأنه خنجر .

ومن خلفى ظهر ذلك الشىء الأسود فجأة .

عربة طويلة أنيقة فارهة مثل سكين سوداء النصل .

وكانت لحظة قصيرة جدًّا حدث فيها كل شىء بسرعة مذهلة .

اصطدمت العربة بالكورنيش محدثة صوتاً فظيعاً مروعاً ، ثم تهشمت ووقفت كصرصور كبير فقد رأسه .

وتعاقبت بعد ذلك الأحداث فى نظام واستطراد دقيق .

انفتحت عدة نوافذ وأبواب وخرجت وجوه سهرانة .

خدم المقاهى وعلب الليل وخفراء وبوابون .

وتجمعت حلقة صغيرة ، وامتدت عدة أعناق داخل العربة ، وسمعت عبارات قصيرة مقتضبة :

– نعم إنه هو .

– إلى جواره زجاجة الخمر فارغة كالمعتاد .

– مات . . انتهى أجله .

– يستحق هذه النهاية .

– فاسق سكير هاتك حرمات .

- جمع ثروته من بيع المخدرات .
- من قتل يقتل ولو بعد حين .
- بالأمس صدم طفلا فى هذا المكان .
- متزوج من ثلاث نساء وكان يلتقط فتيات الليل من الطريق .
- عمن تتحدثون . . أنتم مخطئون .
- إنه رجل آخر .
- إنه حضرة المقاول .
- الذى بنى عمارة الكورنيش التى انهدمت .
- الغشاش الذى غش فى المواصفات وبنى العمارة بدون مسلح ليضاعف من أرباحه .
- الله لا يبارك فى الحرام .
- انهدمت العمارة على السكان الأبرياء وماتوا .
- ليشرب هو الخمر ويقود العربة البويك فى منتصف الليل كالمجانين .
- الله اقتص من الظالم .
- ولكنه ليس المقاول . . إن المقاول لا يركب عربة سوداء . إن عربته حمراء وشيفروليه وهو الآن فى الكويت .
- إذن من يكون .
- لقد عرفته إنه مدير السجن .
- الذى كان يعذب السجناء .
- دون أن تكون لديه أوامر .

- إنه مريض بالسادية .
- هذا غير صحيح فمدير السجن معتقل الآن رهن التحقيق .
- نحن أمام رجل آخر .
- أظن أنه مدير الجمرك .
- الذى أثرى من التهريب .
- بل هو التاجر الكبير الذى نشرت عنه الصحف .
- الذى كان يتاجر فى أذونات الاستيراد .
- لا أظن فهو لايبدو من ملامحه أنه مصرى .
- شكله إيرانى .
- بل هو تركى .
- أبداً . . هذه ملامح مألوفة . . لا يمكن أن يكون هذا الوجه أجنبيًّا .
- إذن من يكون .
- واحد . . أى واحد .
- كان يشرب الخمر وأفرغ الزجاجة .
- ولماذا كان يشرب الخمر؟
- هذا شأن البوليس .
- لم يعد من شأن أحد .
- لقد مات .

وكانت الحلقة تتسع شيئاً فشيئاً ، والأسئلة تتداح كالدوائر ، وجاء البوليس والإسعاف والنيابة والصحافة .

وكثرت الأسئلة .

وارتفعت الضوضاء .

وأصبحت لغطاً .

وفى الصباح وأنا أمر بالمكان فى طريقى إلى عملى لم أجد العربة المهشمة . . ولم أجد أحدًا . . ولا بقعة دم .

كانت الطيور البيض تحلق على الماء .

وصفارات السفن تسمع من بعيد . . وكل واحد يسير فى حالة .

انتهت الضوضاء .

وسور الكورنيش نظيف مغسول حتى الأسمنت الذى تهشم قد تم ترميمه وعاد إلى سالف حاله .

لا أثر .

ولا ذكر لذلك الذى كان . . ثم لم يكن .

والسؤال ما زال كما هو بلا جواب .

وأمواج البحر العالية ذابت واختفت .

وانبسط البحر كالحصير .

والماء ما زال يوشوش هامسًا بكلمة السر .

* * *

السارق

كان المبشر المسيحي يجمع حوله حلقة من الزنوج العراة فى صباح استوائى شديد الحرارة ، وأوراق أشجار الموز ترسل ظلالاً رحيمة ، وحبات الندى تلمع على ثمار الأناناس كأنها قناديل من الكريستال والرطوبة تقطر من الأنامل .
وكان المبشر يشرح وصية الإنجيل . . لا تسرق . .
وكان الزنوج العراة ينظرون إلى بعضهم البعض ولا يبدو عليهم أنهم يفهمون شيئًا . . فها هو ذا الرجل الغربى يكلمهم عن أشياء عجيبة .

لا نسرق ماذا . . كل واحد ينظر إلى الآخر ويهمس .
إنهم عراة لا يملكون حتى خرقة على اللحم . . والفواكه على الشجر . . والصيد يمرح فى الغابة . . والأرض لا صاحب لها . .
والكوخ ليس فيه شيء . . ماذا نملكون ليسرقوا .
حتى الكوخ تبنيه القبيلة لكل من يتزوج وتقدمه هدية لم يبق إلا النارجيل .
ولكن كل من يطلب النارجيل نعطيه النارجيل ، فلماذا يسرقه والغابة مليئة بالبوص وكل من يريد أن يصنع لنفسه نارجيلا فأسهل عليه أن يصنع عشرات النراجيل ولا يسرق واحدًا .
إن الرجل الأبيض يتكلم كلامًا غريبًا .
أسهل أن يدخل الجمل ثقب إبرة من أن يدخل الغنى جنة الله .

ولكن من هو الغنى هذا ؟!

الذى يملك أموالاً كثيرة وضياعًا .

ولكن ليست عندنا أموال ولا ضياع .

ونحن لا نتعامل بالنقود .

نحن نتبادل الخدمات ونعيش بالمقايضة .

هذا تخلف . . سوف نصك لكم العملة ونعلمكم كيف تستعملونها . . وبعد ذلك سوف ينشأ بينكم الأغنياء . . وبعد ذلك سوف يكون الغنى حراماً .

ولماذا كل هذه اللفة الطويلة . . هذه أمور معقدة جدًا . لقد بدأ الدرس يصعب ويتعسر فهمه .

يجب أن يكون لكل واحد منكم زوجة واحدة فقط . . إن تعدد الزوجات زنًى ، وأمرًا منكرًا لا يرضاه الله . . معصية كبرى .

وانبرى واحد من الزنوج يقول فى تلعثم :

– ولكنى قرأت يا سيدى فى الكتاب المقدس الذى وزعته علينا مترجمًا بلغتنا . . أن النبى سليمان تزوج أكثر من سبعمائة امرأة ، وكانت له حليلات غير زوجاته ، وكذلك كان النبى داود . . أرجوك يا سيدى اتركنا نمشى خلف داود وسليمان .

وظهر الحرج على وجه الرجل الأبيض وقال فى ارتباك :

– هذه أمور تاريخية وقد تغيرت ظروفها والله قد غير سنته وعلينا أن نطيع كلماته .

– ولكنى يموت لى عشرة أبناء كل سنة بالملاريا والحمى والصفراء

ومرض النوم ولو تزوجت واحدة فلن يبقى لى نسل .

- هذه مسألة لا تهم .

فنظر كل زنجى إلى الآخر فى استغراب ثم قال أحدهم :

- وهل هى مسألة لا تهم الله أيضًا .

- الله يحفظ عباده الأتقياء .

ولم يفهم أحدهم كيف يحفظ الله عباده الأتقياء من البعوض وذباب التسى تسى ، ولم يفهم أحدهم كيف يكون تقيًّا . ولكنهم فهموا جيداً أنهم لابد أن يتزوجوا كل واحد بواحدة ، وأنهم بهذا سوف ينقرضون . . وأن هذه مسألة لا تهم السيد الأبيض فى شىء .

(ومسح المبشر عرقه بمنديل حريرى جميل وقال) :

- هذا يكفى لدرس اليوم . . وكل واحد يذهب الآن إلى كوخه . . وغدًا نلتقى فى المنجم .

وفى الغد كان رتل طويل من الزنوج يعملون فى المنجم . . يدخلون الأنفاق الطويلة ثم يخرجون حاملين جوالات معبأة بالأتربة المعدنية .

وكان الرجل الأبيض واقفًا فى مدخل الأنفاق يدخن .

وخطر لأحد الزنوج سؤال فاقترب من الرجل وحياه فى أدب ثم قال :

- سيدى هل أستطيع أن أسأل . . إلى أين تأخذون هذا التراب ؟

(فأجاب الرجل فى اقتضاب) :

– إلى الباخرة الراسية فى الميناء كما ترى .

(ولم يبد الجواب شافياً لفضول الزنجى فعاد يسأل) :

– وأين تذهب الباخرة به بعد ذلك ؟

(فعاد الرجل يجيب فى ضيق) :

– إلى انجلترا .

(ففكر الزنجى بسرعة ثم قال فجأة) :

– سيدى . . أليست هذه سرقة كما يقول الإنجيل ؟

(فأجاب الرجل محرجًا) :

– ولكننا سوف نعيدها إليكم مصنوعات جميلة .

(فقال الزنجى فى فرحة) :

– وسوف توزعونها علينا مجانًا .

(فقال الرجل) :

– وهل هذا معقول أن يعمل العمال فى بلادنا بدون أجر .

(فغمغم الزنجى فى استغراب) .

– هذه أمور عجيبة .

(وعاد يحمل جواله ويدخل النفق وهو ما زال يفكر . . ويقول لنفسه) :

لا شك هذه أمور عجيبة فها نحن أولاء نعمل بدون أجز . .

ونعطى لهم تراب أرضنا بلا ثمن .

لا شك أن ديانات هؤلاء الناس غريبة جدًا .

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٤٩٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠١٠٨-١

١/٨٢/٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

